طنطاوى عبد الحميد

مطلوب أفضل جحش

مجموعة قصصية



مطلوب أفضل جحش



دار الاحمدى للنشر

القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت

تليفاكس ٥٧٥٨٠٩٨ (٠٢)

المنـــيا : ٧٣ ش طــه حســين

تليفاكس ٣٤٧٨٠٢ (٠٨٦)

الطبعة الاولى : يناير ١٩٩٩

رقم الايـــداع : ٩٩/٢٧٥٠

الترقيم الدولى : (ISPN) : 6 - 18 - 5887 - 977

مطلوب أفضل جحش

طنطاوي عبد الحميد



دار الأحمدي للنشر

اهـــداء

إلى روح أبى ..

الســـراب

متعته الوحيدة النظر للنجوم ، لايسبغ فكره بالأحلام الوردية للغد القادم ، لم تشفع له شهادته التي نالها في الحصول على وظيفة ترفع عن كاهله ما يعانيه من حمله وحمل أسرته ، لم يستسلم للخمول والكسل ، يدور طوال نهاره باحثاً عن أي عمل . اشتغل حمالاً للأمتعة في فندق ، ثم عاملاً للنظافة ، ومرة في مصنع للبلاستيك ، وأخرى في مصنع للنسيج، كلها كانت أعمالاً وقتية تنتهي يوم قدوم من هو أوفر منه صحة .

لا يعبأ هو بما يحدث ، في اليوم التالي يعاود اختراقه للشوارع والدروب باحثاً عن عمل جديد ..

شهر مضى أو يزيد ، كلّت قدماه ولم يكل فؤاد عن الرغبة في الولوج الى دنيا جديدة وعمل آخر ، قدم أوراقه مشفوعة بشهادات موثقة من أكثر من مكان. وقف أمام الموظف المكلف باستكمال أوراقه ، نظر الرجل في الأوراق بدقة ، أخذ يردد اسمه أكثر من مرة متسائلاً : " هل هو نفس الاسم ؟ " أومأ برأسه أكثر من مرة بأنه ذات الإسم . طلب منه الجلوس ، رسم فوق وجهه ابتسامة عريضة ، أخذ يحدثه بحديث ودود

يقطر وداً وكأنه يعرفه منذ زمن ، صمم أن يتناول المشروب الذي يطلبه، أمام اصراره طلب كوباً من الشاى فطلب الموظف لنفسه كوباً أيضاً .

أخذ الموظف يرشف الشاى بصوت مسموع ويتحدث بفم يكشف عن أسنان لم يتبق من لونها الأبيض شيء ، يسحب نفساً طويلاً من سيجارته وهو يقسم له أن عدد المتقدمين للوظيفة يتجاوز الألف ...

أمام المبنى الكبير احتشدت الجموع ، سأل عرف أنهم جميعاً ساعون في طلب الوظيفة ، سأل عن عدد الوظائف الخالية فعرف أنهم خمسة فحسب ، ابتسم في أسى وحسرة ، هم بالمضي ، هل يعود أدراجه ؟ هو من أسرة تفتقر النسب الكبير ، لا أب له مركز مرموق ولا صديق يتبوأ مكانة تدفعه الى مقدمة الصفوف ولا قريب من رجال الشرطة ليفسحوا له الطريق الى بغيته ، وأيضاً هو ليس بفتاة جميلة ترفع صبغات وجهها حرارة المستقبلين ويفيض شعرها المتسرسل بهجةً في عيون الحاضرين .

كاد يطلق ضحكة طويلة ساخرة ، ود لو يشاركه أحد في السخرية من نفسه ، أخذ يتفرس في وجوه من حوله ، وجد الجميع معرضين ، كل سابح حالم بأن يتمرغ في تراب الوظيفة ، حاول أن يضحك فلم تسعفه نفسه ، دار على عقبيه وهم بالمضى ، سمع اسمه يتردد ، توقف ، اهتزت أطرافه ، صوب عينيه ناحية الداعي ، عرف فيه الموظف الذي استقبله واستكمل بياناته ، حشر نفسه بين الجموع ، ورفع يده معلناً

عن نفسه ، اخترق الصفوف بين همهمات الجموع : " يا بخت من كان النقيب خاله " .. " من له ضهر ما ينضربش على بطنه " .. " آه يا بلد " .. " أملك دعيالك يا عم " .. " لسه مطلوب كمان أربعة " ..

صنع فوق شفتيه ابتسامة ، لم يأبه بما يسمع ، لم يفكر في أن يرد إحداها ، سحبه الموظف من يده ، اندفعا للداخل سويا حيث مكتب شئون العاملين ، مال الموظف فوق أذن المدير وهمس بكلمات ، ما أن أنهي الموظف همسه حتى استقام المدير وقام من مجلسه ومد يده إليه مصافحاً ثم عاد للجلوس ، صمم أن يتناول معه القهوة المضبوطة التي يعد بُنّها لنفسه خصيصاً في المنزل ، أخرج علبة القهوة من درج مكتبه وأعطاها للساعي ، أخذ يتجاذب معه الحديث مثل أصدقاء قدامى ، حكى في موضوعات شتى ، شد على يديه ، هنأه مقدماً بالحصول على الوظيفة ، أخبره بأنه سيعمل جاهداً أن ينهي كافة الأوراق الخاصة به بنفسه ، ولم ينس أن يشكره .!

أسبوع مضى ، لم يصدق أنه قاب قوسين أو أدنى للوظيفة ، كان دعاء أمه بعد الصلاة كفيلاً بأن يرفع عن كاهله عبء التفكير فيما حدث ، أحاديثه تتردد مع نفسه ، وجد الفرصة سانحة وهو جالس للحلاق ليقص عليه ما كان ، أخذ الحلاق يكيل له المديح والثناء ، يصفه تارة بأنه يحمل بين ملامح وجهه ما يلقى في قلب محدثه بهيبة

ورهبة ، الرجل يرفع من مكانته وهو ينظر في المرآة الكبيرة أمامه ويبتسم، يتأمل وجهه المسحوب وبروز عظام الوجنات ويهتف في نفسه: " مومياء فرعونية محنطة " ، يضحك وينظر من جديد لشعره المجعد والى أذنيه الكبيرتين ثم يعاود الضحك وينظر من جديد لعينيه الغائرتين وكأنهما عينا فأر أثار الفزع تذهب بهما ذات اليمين واليسار .

ذهب في الموعد المحدد ، استكمل أوراقه واستعد للاختبارات ، لم يختبروه ، استقبله مدير شئون العاملين بحفاوة بالغة ، تناول ثانية القهوة المضبوطة التي لم يتعودها مشاركة للسيد المدير ، سلمه مسوغات التعيين كاملة فتم التوقيع عليها فوراً ، مهرت بإمضاءات الجميع وفوقها خاتم الشعار الجمهورية في أكثر من موضع ، كادت تطفر عينيه الدموع فرحاً، لم يصدق ما يحدث له .

بدوره قدمه مدير شئون العاملين لمدير القطاع بعد أن همس في أذنه ، وقع الأوراق وعلى شفتيه ابتسامه عريضة . ومنه للسيد المدير العام الذي استقبله بلش الوجه متمنياً له التوفيق .

لم تبق سوى توقيعات السيد رئيس مجلس الإدارة ، جلس أمام مكتب سكرتيرته التي يقطر وجهها جمالاً وبشاشة ، لبقة الحديث ، سريعة الكلمات ، دائبة الحركة ، تركه المدير العام ودلف إلى مكتب الرئيس

هاله منظر الحجرة مترامية الأطـراف والمكتـب الضخـم حيـث يجلـس خلفه رئيس مجلس الإدارة بجثته الضخمة ، تقدم بخطوات متئدة .

كان جو الغرفـة مشـبعاً بـالهواء الرطـب المنعش الـذي يدفعـه جهـاز التكييف ، لكنه لم يحل دون تنـاثر حبـات العرق فـوق جبهتـه ، وقـف كتمثال في معبد وثني أمام كبـير الآلهة ، بادره الرجـل بصـوت في نبراتـه دلائل الكبرياء والتـذمر بجملة أسـئلة ، أسـرع ينفيهـا في ثبـات ، تحـدث المدير العام بلهجة فيها التودد والتردد ، أخذ يردد :

" إن السـيد مديـر شئون العـاملين هـو الـذي أخـبره بأنـه ابـن عمــه سيادتكم مباشرة .... " !!

أهتـزت رأسه واللرجل يحدجه بنظرات نارية ، أحـس بـأن النظـرات تخترق جسده ، استدعاهم جميعاً بصوت غاضب ، حتـى الموظـف الـذي استقبله في أول يوم .. أطلق عليهم سيلاً من الكلمات التي تسـخر منهـم جميعاً . أعلن لهم على الملأ أنه ليـس ابـن عمـه ، وأن الأمـر مجـرد تشـابه أسماء . مزق الأوراق وألقاها في وجهه.

هكذا ذهبت فرصته ، أكتفى بإبتسـامة عريضـة رسـم فـوق وجهـه ، ذهب عنه تخوفه وعاد اليه برود أعصابه ، امتدت يده وأخـرج مـن جيبـه جنيهين وضعهما فوق مكتب الرئيس قائلاً :

" سيدي لقد شربت أكثر من مشروب ، وبحساب الفقراء يكون ثمنها جميعاً جنيهان . أرجو أن يأخذ كل من مرؤسيك حسابه ... "

خرج ...... وصفق الباب خلفه .

شعرة بيضاء

منذ الصباح وهي مترددة في الحديث ، في قلبها غصة وفي عينيها دمعة لم تولد بعد ، في صدرها أحاديث مكتومة ، ماذا تفعل ؟ منذ دخلت الى الفندق الكبير من بابه الخلفي ، باب الخدم والعمال ، لم تتفاعل مع ضحكات زميلاتها، حاولت إحداهن مرة أن تبدي بعض الأعجاب بساقيها شبه العاريتين وهي ترتدي ملابس الفندق ، لكنها لم تعرها إهتماماً . كثيراً ما حاول غيرها معها ، لم تزد عن مصمصة شفتيها

دخلت الى الغرفة ومضت تزاول عملها دون تعليق ، عملت بلا كلل ولا ملل ، نظفت الحجرة والقاعة ، حملت البقايا ، أعادت الأشياء الى سابق واضعها. وجدتها نائمة ، بلا أصباغ ، بلا رتوش ، بلا عطور ، شعرها متناثر ، تأملتها وكثيراً واستعادت النظر إليها بإمعان ، كادت تسقط عندما فتحت عينيها ودعتها بإشارة من يدها ، استجابت مسرعة، هرولت ناحيتها ، ناولتها كأس ، تجرعته ، طالبتها أن تعيد تنظيف المكان، قامت وتحركت نحو الحمام فبدت أكثر قبحاً منها في نومها ، أحست هي أنها أجمل منها ، لكنها تدخل من الباب الأمامي للفندق وهي تدخل من الباب الخلفي ، تنحني لها الرؤوس وتستقبلها الوجوه ببشاشه ، هي تهب أكثر لمن ينحني أكثر .

أدت عملها على أكمل وجه ، وهبتها كعادة الكبراء ، قبضت يديها على الورقة المالية وفركتها بين راحة يدها ، رسمت ابتسامة شكر وعرفان، تأكدت من نظافة المكان جيداً ، انحنت أمامها .. ومضت .

جلست في حجرة الخدم بمفردها ، نثرت شعرها الجميل حول وجهها البيضاوي الغض ، مازالت الشعره البيضاء في مفرق رأسها تخرج لها لسانها ، بعد أكثر من محاوله فاشلة لإقتلاعها ، لم تمتد يدها ثانية لنزعها، أخذت تتأملها، اقتربت من المرآة وابتعدت عنها .

مازالت الزهور الصناعية بألونها وأصباغها لم تتغير ، لون أسود خفيف أسفل عينيها ، تساءلت : " شعره واحدة اليوم .. وغدا كم يصبحن ؟ " .

لم يتقدم لخطبتها أحد ، لم يأت الوقت الذي تخرج فيه لتتنسم عبق مساء الصيف أو الربيع مع رفيق يؤنسها .

تعمل والأمس اليوم ، وغدا ستعمل إن كان غد قادم ، كم تحلم أن تدخل يوماً من الباب الأمامي للفندق ، كم يلهب فؤداها ومشاعرها أن تتخيل تأبط ذراع رفيق وحبيب ، تمرق الأيام وتتابع وليس هناك جديد ، أمس هو اليوم ، والغد قد يكون تكرار للأمس ، وماذا يعقب الغد ؟ ... وبماذا ينتهي ؟ ... ولم الحياة أصلاً ؟ ...

تخرج كل مساء من الباب الخلفي ذو الأضواء الخافتة ، تحشر نفسها في الأوتوبيس ، تحتك الأجساد بجسدها ، تتبرم وتتمنى أن يكون هناك من يحيطها بساعديه ، يدفع عنها هرولة الأقدام وإحتكاك البطون والأرداف .

تأخرت يوماً فلم تجد مفرا من سيارة أجرة فطلب سائقها ما يعادل أجر يوم كامل من عملها ، فمنزلها في مكان قصي بالمدينة ، عنفتها أمها، وعدتها هي ألا تكررها ثانية .

تكاثرت الشعرة البيضاء التي ظهرت بلا مقدمات ، أثارت في نفسها الكثير من الإضطراب ، خافت ، بكت في صمت دون ثورة ، على من تثور ، على العمر الذي تعدت منه ثلاثة عقود .

بلا تردد تقدمت صوب حجرة السيدة التي تحجزها لنفسها منذ شهور بمئات بل بألوف من الجنيهات ، السيدة التي اعتادت أن تصحب كل يوم الى حجرتها رجلاً مختلفاً .

لم تكن هذه المرة للتنظيف ، اتجهت مباشرة الى المرآة ، جلست ، تزينت ، امتدت يدها لثوب من ثياب السهرة التي ترقد في الدولاب والتي تلألأت مع أضواء الغرفة ، تحركت على أطراف أصابعها ، حتى قدميها حملتها بحذاء من أحذية السيدة .

خرجت الى لبهو الواسع ، تحركت في ثمالة وشموخ ، لم تتخوف أناملها و لم تهتز أهدابها و لم يفتر ثغرها عن ابتسامة مصنوعه بدقه ، تتبعتها العيون ، انحنت لها الروؤس، استدعتها أكثر من عين وتلقت أكثر من إشارة ، أبدى كثير من الرواد إعجابهم ، همت أن تخرج من الباب الأمامي للفندق حيث الأضواء المبهرة ، سألت نفسها : " لماذا لا تجلس بينهم ؟ لماذا لا تتسامر معهم ؟ لماذا لا تقضى ليلة تهفو إليها نفسها منذ زمن ؟ "

عدلت مسارها ، ولجت الدنيا الجديدة ، داخلها أمواج مضطربة بينما وجهها بحيرة ساكنة جميلة ، كم ستلفع ، كم ستتكلف ؟

اتخذت القرار ، ستصم أذنيها عن سيل الشتائم التي ستنالها من أمها لتأخرها .. لتتحمل .

جلست ، تتبعها جلس إليها ، أخذ يهمس إليها بكلمات جديدة عليها ، اهتزت البحيرة ، كاد يطفح ما بداخلها من مشاعر على السطح، عاودها ثباتها ، ضحكت وتحدثت .. تحدثت بنعومة بالغة .

تقدم الآخر ناحيتها ، سحبها من يدها ، حاول جليسها أن يعترض ، ابتسم له وطالبه بالتريث للحظات ، مضت معه مستسلمة ، ارتعشت لأول مرة، اهتزت أطرافها ، مضت خلف مدير الفندق ، بعيداً عن البهو الكبير حاول أن يبدوا هادئاً وصل بها إلي الحجرات الخلفية ، تطاير

الشرر من عينيه ، سألها عن فستانها وزينتها ، طلبها أن تخلع الملابس التي عليها وترتدي ملابسها ، انصاعت وارتـدت لبـاس لعمـل ولاتـزال آثـار زينتها فوق وجهها ، أمسك برأسها بقوة ووضعها أسفل صنبـور الميـاه ، غسل رأسها ووجهها ، كال لها الشتائم وأمطرهـا بسيل مـن السـباب ، لفت رأسها ، طالبها أن لا تعود الى ذلك ثانية ثانية ...

أومأت برأسها بانكســار .. ومضـت لتخـرج كمـا اعتـادت .. مـن الباب الخلفي ...

البريق

كلماته تتدفق كلهاث أنثى لحظة النشوة الكبرى فتتعالى آهات ، تتواكب آهاته وآهات مريديه ، يستشعر أنه وصل بهم للحظة السكرى. تتوالى لقاءات المفكر الكبير بأتباعه كما يروق له ، وكم صبغوا عليه من الأسماء والألقاب .

استطاع أن يمتطي عقولهم ، صاغ أمانيهم بما تهفو اليه نفسه ، أشعل نيرانه تحت أمانيهم المسجونة ، ارتفعت حرارة الأماني وترقبت اللحظة التي تتفجر فيها ، داعب أمانيهم بالغد المرتقب ، نفخ فيهم ، طالبهم بالقرابين . تثاءبوا أملاً مكبوتاً ، صاغوا أحلاماً ، قفزوا فوق حواجز ، ارتسمت صور متتابعات فوق صفحة النيران المشتعلة ، تلونت العيون بلون الدم ، صبغت القلوب البيضاء ، انشطر الوجد العامر بالايمان بين الحمد وبين الثورة ، اندفع جهلاء القوم وتريث العقلاء ، استلهم من عاداتهم فكره ، تدثر بمعطف فقرهم وحاجاتهم فتوثقت أفكارهم وأفكاره ، انثال الدمع من مقلة عابد ، استفحل داء النقمة ، تلاعب بالكلمات ، فتراخت عضلات الرقبة وانحنت الهامات أمام سيل الكلمات النشوانة .

أسبل جفنيه ، تراخت أهدابه ، أخذ يحصى مكاسبه ، أعاد ترتيب أوراقه ، أخرج بطاقته الجديدة ، مزق القديمة وأحرقها ، احتضن جواز سفره .

ديل الكلب

كنا أربعة لم نتعد العشرين من العمر ، لا يحدونا أمل نجازف من أجله بشيء، نعيش لحظتنا ويومنا في لهو لا يفيد وحديث لا يخلو من تفاهة ، كنا نحسبها وقتها قمة الرجولة ، لم تكن المخدرات بعيدة عن متناول أيدينا ، فنحن نعرف كل دروب الوادي حولنا و لم يكن هناك شيئا بعيد المنال ، الفتيات كثيرات وعلاقات الخفاء متعددة . لم نفكر يوماً في الزواج ، طرح كثيرون من الأهل فكرة الزواج علينا لكنها لم تلق منا قبولا .

زعيمنا كان مغامرا ؛ يصحبنا في مغامرات كثيرة ونعود فنقتسم الغنيمة ، دائما هو في المقدمة ، إن طافت برأسه فكرة ما أيا كانت فأنه يسارع ونحن معه بتنفيذها ، كثيرا ما وصفناه بالمجنون أو المتهور ، كان ينتشي ونحن نصفه بذلك ويتحمس لمواصلة مسيرته على نفس الدرب . وكم دفعنا الثمن صفعات وركلات ومعارك كثيراً ما كانت خاسرة لنا وقلما كنا نخرج منها سالمين، كنا نضحك بعد المعركة ونلقي بأنفسنا فوق رمال الشاطئ أو في ماء البحر ، الذي من أعظم فوائده أنه يكوي الجروح ويسرع بشفائها .

حمى الوطنية كانت تجتاح البلاد ، وأناشيد الثورة تتردد يومياً عبر الإذاعات ، خطب عبد الناصر تلهب الحماس ، لكن أحاسيسنا بليدة ، نتحرك مع جموع الهاتفين ونردد مثلهم بينما هتافاتهم بالنسبة لنا مجرد كلمات بلا معني ودعوات بيغاويه تتسم بالغباء والرعونة . في الموعد المحدد كنا ننسحب في هدوء نحو أوكارنا المعتادة .. نمارس .. نحتسي ... ندخن .. غيبوبة غريبة نعيشها ، لم نفق من غفوتنا ، ورغم الهلع والرعب الذي أصاب الجميع من حولنا فلم نكترث نحن كثيرا .

السيارات اليهودية تخترق الدروب ، والإذاعات تزف السقوط وشماتة غريبة تغلفها الكلمات الرنانة حتى من الأصدقاء ، أسبوع كامل لم نر بعضنا ، الجميع محبوسون بأمر الحاكم العسكري اليهودي ، تصدر الأوامر تباعا ، يجمعون كل الرجال في الساحه الكبيرة ، حزن يملأ العيون، منشورات سرية تحمل دعوات للمقاومة . لايكاد يمر يوم دون خبر أستشهاد بطل أو اتمام عملية عسكرية ، يتطوعون في السر . لا نكلف أنفسنا عناء التفكير ، يعتاد الجميع الإحتلال ، يموت عبد الناصر وتختفي بموته دعوات الحرية وشعار ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة ، يرضخ الكل لما هو قائم ، نذهب الى قطاع غزة والقدس والمدن الأخرى، نعمل ونكسب ونمرح ، نعود مروراً بالطريق الذي يعج بالأماكن المصرح فيها بالإختيار والممارسة ... جميلات من شتى بقاع الأرض ، ندفع ،

فجيوبنا ممتلئة بالعملات اليهودية من الليرة والشيكل والدولار ، كل شئ في متناول أيدينا . مشروبات ودخان ونساء ، لا خوف من عين تتجسس أو قريب يلهبنا بسياط كلماته . أحيانا جلسات جماعية في قاعة عرض صغيرة تستعرض فيها الطرق المختلفة للمارسة ، ندفع ، نخرج ونحن لا نملك شيئا مما كسبنا في يومنا ، نعود ونحن يغمرنا أحساس غريب بأننا قد أخذنا بالثأر من اليهود ، فقد نلنا من شرفهم ومرغنا رؤوسهم في الوحل ، لا نشعر بأننا قد ارتكبنا معصية ، يملأنا الزهو ...

توقفت السيارة عند مدخل القاهرة ، فتحت عيناى ، وتركت الذكريات .

استقبلني بحفاوة بالغة ، أمر السكرتيرة الخاصة جداً ألا يزعجنا أحد ، كعادته هو الأفضل والأقوى ، امتلك ناصية الحديث ، أخذ يشرح باستفاضة عن مشروعاته وآماله في الغد ، انخرطت معه في شتى الموضوعات ... سألته بعد تردد :

ـ هل تطمع في المزيد ؟

ابتسم وهو يشعل سيجارته :

ـ مازال في العمر بقية .

ـ لقد جاوزنا الخمسين .

ـ هل تذكر أحلامي و أنا صغير ؟ ... هل نسيت ... ؟

ضحكت

- لم أنسها بعد .. النجوم التي كنت تمد يدك وتتناولها من السماء ..

- لم أصل بعد لتلك لنجوم ..

- لكنك وصلت للكثير .. أنت رجل برلمان الآن وتساهم في رسم خطط المستقبل ولك كلمة مسموعة ، وأصبحت صاحب جاه .. وبلا حسد لك استثمارات في ميادين مختلفة ..

أتأمل الزوايا والأركان ، أسرح فيما هو غارق فيه من غنى وجاه ، لم أستطع أن أجمع أطراف حديثه ، تحدث كثيرا و لم أدرك كل ما قال ، ضحك بشدة ومال للخلف بكرسيه وغمز بعينه ...

- أمازلت تعشق الفتيات الصغيرات ؟

ابتلعت كلماته ورسمت ابتسامة ، تذكرت ابني الذي أنهى دراسته الثانوية ويتمنى الإلتحاق بكلية الشرطة ، والزعيم القديم وعلاقاته الوطيدة بأولي الأمر ، لم يصمت وصفعني ثانية بقوله :

- كانت ابنة عمك . عاد للضحك من جديد ، تصنعت الثبات ، ووصفت له أفعالنا القديمة بأنها كانت طيش شباب .

كانت صغيرة جميلة ، تربينا سويا ، كانت تعشق البحر ، كنا نقيم عشتنا كل مصيف على شاطئ النخيل ، نعبث ونلعب طوال يومنا . ويوم تدور ثدييها فصلوا ما بيننا ، فلم نعد نلهو على الشاطئ كعادتنا ،

عيني لا تفارقهـا وهـي تدعونـي بحـذر ، يلتصـق الثـوب النـاعم بجسـدها الجديد ذي النتـوءات والتعرجـات الحديثـة ، أجـزاء نفـرت ، نضجـت . حتى كان يوم أربعة أيوب ، وهو يوافق يوم الأربعاء السابق لشم النسيم، حيث كنا قد اعتدنا فيه الخروج الى شاطئ البحر لنلقى بأنفسنا في مياهه، الجميع كانوا يفعلون ذلك ، يقولون أن هذا اليـوم هـو ذات اليـوم الـذي شفى فيه سيدنا أيوب من مرضه ، وهنا أيضاً ذات المكان ، حتى السـليم المعافي كان يستحم ويغرق جسده بالماء . أما السيدات والفتيات فإنهن كن يفضلن ساعة الغروب ، وكثيراً ما يقلن بأن البركة تحـل علـى الفتـاة وإن دعت أن يرزقها الله بالعريس فإنه سبحانه يستجيب . أشـارت لي ، فهمت مغزى اشارتها ، ابتعدنا عن العيون ، وعند حلول الظـلام انتـابت جسدي كله رعشة أدركت بنظرة سريعة أن جسدها تغمره رعشة أكـبر منها . بين سيقان النخيل المتكاثفة وفوق الرمال الندية بماء البحر تعانقنـا، تقاربنا ، أدركت لأول مرة انني أصبحت في مصاف الرجال ، عبثت بـلا ترو ولا تردد بأجزاء جسدها ، ومثلي فعلت .

اليوم التالي مباشرة تمت خطبتها لرجل في سن أبيها ، تزوج من قبلهـا ثلاث لكنه في ثراء يحسد عليه ، أحاسيس غريبـة تلمكتـني ، تمنيـت قتلـه عندما أتي ومن معه وامتلأ بهم المكان عن آخـره فـوق الوسـائد المنتشـرة بجوار الحائط وعلى مدار الجـدار ، يحتسي ومـن معـه القهـوة ، يضحـك

ويهز كرشه الضخم ، يتبادلون الأحاديث ويباركون النسب ويدعون للزوج والزوجة بالرفاء والبنين ، يخرج مهرها من جيبه ، يتلقفه عمي وكأنه تاجر رقيق ، أتمنى أن أصرخ ، أخرج ، أعود أدراجي وأنظر إليها، تنظر إليّ وعيناها حبلى بالدموع ، أهمس في أذنها : " لن يأخذك إنسان مني ... أنت زوجتي " ، بطفولة بريئة تومىء برأسها ، أبتعد وأهرب إلى البحر ، أذهب إلى كرم النخيل الذي تفجرت فيه رجولتي للمرة الأولى ، وأحسستها وأحسست معها بمزيج من الحب والرغبة في الحياة . شهر ويزيد ولا أستطيع الإنفراد بها ، اتمثلها في نومي وأغمض جفني وأعصر ذاكرتي وأعضائي حتى أذوب بين ذراعيها .

أقاموا عرسها وأحسست وكأن كل شئ في الحياة قد انتهى ، ليلتها كان منزلنا شبه مهجور يعيث به الصقيع بينما منزل العريس الجديد على بعد منزلين فحسب عامر ودافيء ، تسلقت شجرة الزيتون وقفزت الى لسطوح وتسللت عبر الحاجز ، فالسطوح مؤدية لبعضها ، وصلت لمبتغاى بعد أن تخطيت بحذر بالغ مزاريب المياة ، أصبحت قريباً من كوة صغيرة في أعلى الجدار، أصابني الفزع وأنا أراه يسحبها ، ابتسامته البلهاء، خوفها ورعبها وهي تنكمش وهو يقترب منها ، مداعباته الممجية ، يخلع عن نفسه ملابسه وهي تداري عينيها بيديها ، كرشه الضخم يهتز ، يتودد إليها تارة ، لاتجاريه ، يثور ويصفعها فوق وجهها ،

قسراً عنها وتحت وطأة يديه الغليظتين تصبح عارية تماماً، تتكور في نهاية المخدع ، يسقط فوقها ، تتهاوى ، أصمت بينما تنتصب أعضائي بحيوانية غريبة. تصرخ صرخه مكتومة ، أرى الدماء ، أظنها لقت حتفها، يتبسم ، يميل عليها ويقبلها وتعاود هي الأنكماش ، يرتدي ملابسه في عجالة ، يخرج يزف الخبر للجميع ، تلملم شعرها وتلقى فوق جسدها ملابسها، ألعنه ، أقفز بسرعة من حيث أتيت ، لا يأتيني النوم ، لكنني عرفت الطريق ، داومت وأدمنت .

حاولت أن اتجه بالحديث لناحية أخرى من دروب ذكرياتنا معا ، كان ذكياً وذاكرته لم تخنه حتى في أتفه الأمور ، تقدمت سكريترته الحسناء بالمشروب الساخن ، لم أتناول بعد المشروب المثلج الذي نسيته أمامي ، ينظر لمؤخرتها وفي مكر يقول :

ـ ما رأيك : هي أم بنات اليهود ...؟

أحاول أن أتكلم في الموضوع الذي قدمت لأجله ، يطالبني بالتأجيل فكل شئ أطلبه سيلبى ويتذرع بأنها الفرصة الوحيدة التي يجتر فيها الذكريات ، يعود للضحك ويطالبني أن أشرب المشروبين في آن واحد ، رشفة من كل منها وأبدى رأيي ، أحاول أن أتذرع بأن أسناني تؤلمني ، يصفني بصفات قديمة .. معدة تأكل الزلط وأسنان تنهش جمجمة ميت ، لا أجد مفرا ، أرشف رشفتين متتاليتين ، يضحك بشدة ..

يصفني بأنني أفضل حمار في الدنيا .. أحاول أن أثور ، يضحك ويصفني بأنني طوال عمري تابع جيد وهذا هو السر في أنني لازلت حمارا ... أرضخ لكلماته وأتصنع الضيق ، يطلق نكتة مبتذلة ، لا أتمالك نفسي فأضحك ، يباغتني ثانية :

- هل أصابتك الشيخوخة ؟ ... أخبار الـ ...

أحاول أن أهرب ... أبتسم ...

كل عصر وله آذان ...

يعود بالحديث الى مجراه ، يفتح أحد الأدراج ، يخرج علبة صغيرة ، يلقيها إليّ فأتلقفها، يصف مفعولها السحري وقدرتها على العودة بالإنسان ثلاثين عاما الى الوراء ، أتردد في ردها إليه ، تقطع الحديث سكرتيرته بدخولها ، تقترب منه وتهمس في أذنه ، تهتز رأسه ويغمز لها، تخرج ، ينظر إلى ساقيها العاريتين من الخلف إلى فوق الركبة ، أتأمل بدوري . يخرجني من تأملي :

- ما رأيك ... مقاس سوبر ... مخصوص ... قالب مصبوب ..

أتأمل العلبة الصغيرة في يدي وأقلبها ، يؤكد لي مفعولها السحري ، لم يمنحني فرصة لأشرح له ما قدمت من أجله ، أمتدح صفاته ، أفيض في القول وأتذكر نوادره ولا ألج لمواطن ضعفه التي أدركها جيداً ، تتسع

ابتسامته ويعود لكلمة القديمه : " أنــت أفضــل حمــار " . استغل الفرصــة وادفع إليه بطلبي وأمنيتي .. أن يلحق ابني بكلية الشرطة ... يباغتني :

ـ لماذا ... ؟ اتردد بماذا أجيبه ... وبصبر أقول :

ـ ليصبح ضابطا ... يقوم من مجلسه ويتحرك ويجلس أمــامي مباشــرة ويدفعني لشرب ما تبقى من المشروب الساخن والمشروب البارد .

ـ ما رأيك ...نعينه مــن اللحظــة ضابطــا .. أتأملــه وأنــا صــامت .. وأتساءل هل عاد لسخريته .. لا أعرف .. يواصل :

ـ ابنك صحته جيدة ... أليس كذلك ؟

تهتــز رأسي ايجابا ...

– ضابط أمن أفضل من ضابط شرطة ...

أقاطعه وأهب واقفاً ...

ـ لا ... ضابط شرطة ...

يدفعني للجلوس وهو يضحك .

ـ يا حبيبي ضابط أمن مع أحد المشاهير .. ممثل ... ممثلة ... راقصة ... رجل أعمال .. أحد اللصوص الكبار .. سيأخذ بدل الألف ألوف.!

أخذ يستعرض امكانياته وعلاقته ، صممت ، ابتسم ، اخذت منــه وعــدا وموعدا ، يرافقني حتى الباب ، نفس حرارة اللقــاء في الــوداع ، لم ينــس

أن يحدد موعد المؤتمر الذي سيعقده في مسقط رأسنا ، لم أغفل ما يرمى إليه ، وعدته بأنني سأكون رهن أشارته .. كعادتي .

يغلق الباب خلفي ، ألقي بتحية الوداع على سكرتيرته الحسناء التي تبتسم ، اصطدم بفتى جميل الطلعة ، بصعوبة استطيع أن افرق بينه وبين ملامح فتاة ، يمضغ لبانه بين أسنانه وتتدلى من رقبة سلسلة ذهبية ، يلقى باعتذاره بلكنة أجنبية ، لم يطرق أذني من قبل صوت أنثوي ناعم مثل لهجته ، تتسمر قدماى لفترة وجيزة ، ينحني برأسه ناحية السكرتيره ثم يدخل مباشرة الى حجرته .

أجلس بجوار النافذة في الأتوبيس ، يخترق بنا الطريق الصحراوي ، آثار حياة قليلة ، بعض المعدات العسكريه المحطمة متناثرة ، وبعض تجمعات صغيرة وأحيانا بعض المنازل الحديثة ، أغمض جفني وألقى برأسي على الزجاج ، أمتص لعابي وأحسده عما هو فيه ، لكني لا أنكر استقباله الحار ، لا ألبث أن أعلن لنفسي أن هذه هي طبيعته دائما فهو يحتاجني جداً في الفترة القادمة ، وأنا صاحب فضل عليه ، ففي الدورات السابقه فتحت له ديوان عائلتنا وتباريت من الآخرين في سرد صفاته الطيبة بينما أنا أكثرهم علما بحقيقته . يقيم بالقاهرة ويأتي وقت الإنتخابات فحسب ليجمع الأصوات ويفوز بالمقعد ويلفع للكثيرين ويعلن عن الغد المنتظر ، تهتف الجموع وأنا بينهم تحيه للثائر العظيم الذي

قتل الضابط اليهودي أثناء الأحتلال ، أفتح عيني ، ألعنه وألعن ثوريته ونفسي معها .

كانوا غايه في الذكاء ، اثنا عشر عاما يحتلون الأرض ويمتلكون مقدراتنا ، كنا معهم مثل الدمى المتحركة ، تارة يفيضون علينا ... نتعب ونعمل وهم يغرقوننا بالأموال لتستردها منا الجميلات بمحض إرداتنا ، ونعود ثانية وثالثة دون توقف. مرة ثانية يفرضون علينا الحظر ولا نجد وسيله نكتسب منها . في أحدى مرات الحظر وأربعتنا جالسون على شاطئ البحر ، تقدم إلينا ضابط الأمن اليهودي وسألنا عن هويتنا ، لم يجد زعيمنا صعوبة في التعامل معه ، دقائق معدودات ، استطاع أن يجاريه في الحديث والضحك ، كان يجيد العبرية أكثر منا جميعا ، تعددت لقاءتنا مع ذلك الضابط ، كان زعيمنا يتبادل معه الحديث وقطع الحشيش مقابل زجاجات الويسكي وعلب البيرة . إيحاءات وغمزات غريبة بينهما ، لم نكلف أنفسنا عناء ما تعنيه . لم نجد زعيمنا ذات يوم ، توقعنا وجوده في الوكر القديم ، ذهبنا ، وجدنا سيارة الأمن الخاصة بالضابط قريبة من المكان ، هممنا بالإبتعاد ولكن ترددنا ، أقنعنا أنفسنا بأنه طالما هنا فلابد من وجود هدية قادمة معه ، تقدمنا بحذر وهدوء ، مفاجأة لم نتوقعها ، وجدناه يضاجع الضابط اليهودي ، أصابنا ذهول غريب ، تراجعنا للخلف وماتت الكلمات فوق شفاهنا ، تخوفنا مما قد

تسفر عنه هذه العلاقـة . تقابلنـا بعدهـا ، وبعـد محـاورات صـممنـا علـى مجابهته ومحادثتـه فيمـا رأينـا ، لم يهتـم بكلامنـا كثـيرا ، جـاءت اجاباتـه غريبة، منطق ما حدث بالحاجة ، وأنه تحت الحاح احتياجاتنا لم يجـد الا تلك الوسيلة التي نستطيع بها الدخـول والخـروج والعمـل داخـل الحـدود الفلسطنيه . شيء خفي غريب اقنعنا بحججه وجعلنا نشهد له بسعة الأفـق بل وباركنا خطواته على هذا الطريق على أمل الحصول على مـا نبتغيـه . لم يخب ظننا ، فأكثر من مـرة تأتي السيارة الى وكرنا وبها مـا نشـتهي ، ونترك نحن لهما المكان ليقضيا ساعات لهـوهـما .

كانت ليلة غريبة صمم أن يـأخذ آلـة التصوير الخاصـة بـاليهودي ، حاولنا منعه ، بمنتهى الثقه قال لنـا أنـه سـآخذهـا رغمـا عنـه ، تركناهـمـا كالعادة ، بعد نصف ساعة وجدناه قادما مسرعا لاهثا كـالكلب الضـال في الصحراء في يوم شديد القيظ ، يداه ملطختان بالدم ، اصابنا الخوف ، تفرقنا ، اكتشفوا الجثة ، فرضوا الحظر على كل مداخـل ومخـارج المدينـة الصغيرة ، ألقوا القبض على الكثيرين ، لم يجدوا صعوبة في القبـض علينـا نحن أيضاً ، أما هو فقد هرب و لم ندرك إلى أي مكان . قتل أحدنـا أثنـاء محاولته الهرب من الجنود ، والثاني لم يتحمل العذاب وصعقات الكهربـاء في السجن فسقط ميتا . أنا الوحيد الذي تحملـت عذابـا يفـوق الوصـف وسجنت لخمس سنوات نالني فيها ما يكفيني لعشرات السنين .

بعد التحرير عادت الأمور لمجرياتها الطبيعية ، وذكريات الأمس مازالت تعتصر آلامها في حلقي ، عاد الثائر الذي قتل الضابط اليهودي ، هلل الجميع ، جاءني وبكى وأقسم انه لم يدرك ما فعله ، وساق لي الأسباب ، امتلأت عيوننا معاً بالدموع واغلقنا على الماضي باب الذكرى، وطلب مني المساعدة ، وقفت بجانبه في الإنتخابات خوفا منه وليس حبا فيه ، فهو يمتلك الكثير من المواهب السوداء وأيضا الأموال ، ومن يومها وحتى اليوم وهو ممثل للشعب .!

اسبلت جفني ونمت وأنا أسرح في ابني الذي وعدني البطل الثائر أنه سيلحقه .. بكلية الشرطة ..

ليست الأولى

طغى سلطان معدته الخاوية على مملكة فكره المتردى في متاهات الأمل. عكرت صفو أستغراقه رائحة الشواء المنبعث من حوله . امتدت يده ، عبثت بمحتويات جيوبه ، قلبها بين كفيه ، تنحى لركن قصي مخافة أن تلحظه عيون المارة ، أو ربما رآه أحد تلاميذه .

عندما أحس أن الشارع بعيد عنه بعيونه أحصى ما أخرجه .. إنه لا يكفى لشراء شئ من الشواء ، بضع فضيات بين يديه ، أخذ يرفعها في الهواء فترتد الى يده محدثة صوتاً يشارك معدته . هم بالمسير .. هربت إحداهن .. حاول أن يعثر عليها لم يفلح .. وقف في نفس موقعه السالف وألقى بقطعة أخرى علها تأخذ نفس المسار .. لم يجد القطعة الثانية ..

ألقى بالثالثة وتتبع مجراها ، إبتلعتها الأرض .. الرابعة .. الخامسة .. إبتلعتهم الأرض جميعاً .

جر أذياله ومضى ..

ليست المرة الأولى بدون عشاء !

الفرس

أعلن فؤاده العصيان ، أكل حتى سئمه الطعام وشرب حتى ثمل ، تناول قطع السكر أكثر من مرة في اليوم ، غسلوه بالماء والصابون ، وأحياناً ونثروا الروائح الطيبة فوق جسده ، دائماً يسرع ويلهث ويتقدم الصفوف ، يدفع أماميتيه بقوة ويسارع بخلفيتيه خلفهما ، يتصبب عرقاً فيغرق جسده ، يخرج لعابه من بين شدقيه لاهثاً كنتف الثلج أوان الشتاء.

في نهاية السباق يمتدحونه ، يناولونه قطع السكر ، يقَبل ممتطيه جبهته، يغرقونه بالقبلات ، يطوقون عنقه بباقات الفل والياسمين . ينشدون في جماله قصائد ذهبية الكلمات ، يستعرضه صاحبه أمام زائريه، يسمع أرقاماً فلكية في ثمنه ، تنتفخ أوداج صاحبه ولا يُبدي رغبة في البيع .

تهفو نفسه أن يمرح مع أقرانه ، أن يتقرب لفرسٍ شهباء ، يبعدونه ، يبكي رغم قصائد الغزل المتوهجة ، يتمنى أن يقترب منها ويبثها همومه وهواه ، الشهباء تنازله في ساحة السباق ، يتفوق عليها ، يتمنى أن يسري عن نفسه بحديث معها يمس شغاف قلبها .

تذهب أحلامه ، تغرق أمانيه ، صوت صهيله يصلها رغم الجدار بينهما ، تبلد وحشته بالرد عليه ، يتمنى أن يتقرب منها أكثر ، تدفعه

أيدي سائسه وممتطيه وصاحبه بعيداً ، يطمع في ساعة يطلق فيها زفرات قلبه بحرية ، تكبله الأيدي وتدفعه ، يواصل التدريب وقسراً يستمر ، يداعب فؤاده آملاً في غد يطلقون سراح أمانيه ، يُكافح بقوة ، يناور في الحلبة ، يرقص لهم في ساعات لهوهم على دقات المزمار البلدي حتى يُشبع فضولهم ، يمني نفسه أنهم قد يشعرون يوماً به ، لغته غريبة عليهم ، لا يفهموا .

حارسه وحده يعلم بأنات قلبه الموجعة ، يشاركه تحرقه لكنه بدوره خادم مطيع ، أحس بغصة في حلقه ودوار في رأسه ، تداخلت الصور أمام عينيه ، لأول مرة تناوشه الأفكار بقوة ، طرح قلبه فوق ساحة عقله أسئله متتابعة لم يجد لها جواباً .. ماذا يكون ؟ فيم يطمع من تلك الدنيا ؟ هل يحجم ؟ .

عزف عن الطعام ، بكى حارسه بقوة ، لم يتناول قطع السكر ، لم تستجب قوائمه للجري ، لعن العرق الذي علمه كيف يبلل جسده يوماً، لعن تقدمه الصفوف ، لم يشعروا بما آل إليه حاله ، لم يدركوا علته ، صبوا لعناتهم فوق رأسه ، سجنوه و لم يقدموا له طعاماً أو حتى قطعة سكر .

انخفض سعره ، عزموا على بيعه لأول مشتر يدفع فيه أي مبلغ .. والا فسوف يقتلوه ..!

الـــذكرى

خرجت كلمة الصباح تلهج بالثناء ، فهذه آية من آيات القرآن الكريم تلاها أحد التلاميذ بصوت يقطر خشوعاً ، وتلتها حكمة اليوم بحديث للرسول صلى الله عليه وسلم عن مكانة الشهيد ، وكلمات تقطر شفافية وحماساً تمتدح الرجال وتصيغ في وصفهم الصور الجمالية .

دقق كثيراً في اختيارها في ذكرى العبور العظيم ، فوق صدره يستقر وسام نجمة سيناء ، أحس دون سواه أن الاحتفال خاص به وحده ، ألقى بتعليماته بقوة وبصوت يسترجع ذكريات الأبطال ممن حاوروه اللحظة العظيمة ، وقف شامخاً مرفوع الرأس وهو يعطي الأمر لأعضاء الفرقة الموسيقية من الطلاب ببدء السلام الجمهوري ، استقبل الموسيقى بنشوة اخترقت كيانه فأنسته تلك الشظية التي لازالت تترك أثراً غائراً في قدمه اليمنى .

قاد طابور الصباح بحزم ، خرجت تحية العلم من حناجر الطلاب والمدرسين كأنها زلزلة أو صاعقة قوية مرعبة .. في الهتاف الثاني لمحت عينه تلميذاً في نهاية الصف يبتسم ويغمز زميله بحركة من يده في مؤخرته .. كاد يخرج عن خشوعه، أحس وكأن القنبلة التي انفجرت قد أخذت رأسه ، لحظة تاهت كل الرؤى من أمام عينيه ، تذكر يوم اشتعلت النيران في الماء ، يوم تاهت الأعضاء ولم يعد يجمعها جسد واحد .

انتهى النشيد ، صرخ بأعلى صوته دون أن يدرك مـا يقـول ، أسـرع الخطى صارخا في اتجاه صف التلميذ : " يا أولاد الكلاب "

أحس بعمق الجرح في قلبه ... كاد يفتك بالتلميذ ، اجتمعـوا حولـه وحالوا بينه وبين التلميذ ، اهتـز الطابور واختلطـت الصفـوف ببعضهـا ، حملوه بين أيديهم ، في حجرة المكتبة وفوق منضدة كبـيرة فوقهـا مفـرش أخضر طويل تمدد جسده ، أسرعوا إليه بزجاجـة عطـر كـانت مـع أحـد المدرسـات ، أخـذ يصـرخ ويتفـوه بكلمـات لا يـدرك معناهـا أحـد ممـن حوله..

على الجانب الآخر ، وقف مدير المدرسة يحـاول أن يمنـع التلميـذ عـن الخروج من المدرسة ، لكن الفتى لم يأبـه بكـلام المديـر وممـن حولـه مـن المدرسين ، هدد الفتى بأعلى صوته ، خرج مـن بـاب المدرسـة .. انتظـر الجميع ما يسفر عنه خروجه .. انتهى اليوم الدراسي في جو من الوجوم.

في اليوم التالي مباشرة .. وصلت برقيـة بتحويـل المـدرس المذكـور الى الشئون القانونية .. ونقله من المدرسة الى منطقة نائية .

صباح شتاء بارد

النسمات باردة ، السيارات رائحة وغادية ، الطرقات مكتظة عن آخرها .

طلبة المدارس والعمال والموظفون ، رغم لفحة الهواء البارد ، ورغم الملابس الصوفية الثقيلة أو الجلدية المتباينة بين بالية وجديدة ، يلونون سواد أرض الشوارع ، نفير السيارات والدراجات البخارية يزمجر في الآذان أكثر من الريح الباردة ، الأجزاء الظاهرة في برودة الثلج تكاد تتجمد ، العوادم تزكم الأنوف ، الأيدي تتردد قبل الخروج من مخابئها ، رائحة الفلافل الطازجة تهزم العوادم . توقف بسيارته ، أخذ يرقب الحي القديم الزاخر ، كم هو مشتاق ، كم تاقت نفسه لطفولته ، وقف يرقب الطريق ، العمارات ، السيارات ، المحلات الكبيرة والصغيرة ب، عض أشياء مازالت كما هي منذ طفولته ، مازال عم صابر بعربة البليلة بـاللبن وإن كان قد نبت في ظهره بروز خفيف ، زوجته لاتزال تساعده ، تـأمل المرأة ، كان وجهها في صباحات طفولته كالنسمة الندية ، لكنها اليوم اختفت خلف تجاعيد أسفل عينيها ، استثارته رائحة البليلة ، خرج من سيارته ، بالقرب منه توقفت لتعبر الطريق ، لم تعره اهتماماً ، ثيابها بالية، تجاهد في تحريك قدميها ، عيناها زائغتان ، رعشة فوق شفتيها اليابستين ، ثوبها الأسود القديم وغطاء رأسها البالي ، أخرج يده من

جيب سترته الصوفية ، رغم البرد ، نظر إليها ، صوبت نظراتها إليه ، عاتبته بعينيها ، لم يتحدثا ، امتدت يده إليها بجنيهات عشرة ، قلبتها بين يديها غير مصدقة ، ابتسمت ابتسامة شكر ، طغى سلطان الجنيهات العشرة على مخارج ألفاظها فألجمها ، تحركت أناملها حول الجنيهات رغم البرودة . عاد لسيارته ، ما كاد يجلس فوق عجلة القيادة الا وشقت صرخاتها عنان السماء ، طارت الجنيهات من يدها ، سالت الدماء من رأسها الحاسرة ، ظهرت شعيرات رأسها البيضاء ، تجمع الناس ، نزل من سيارته مرة أخرى ، أرقدوها على جانب الطريق ، أرسلوا في طلب الأسعاف ، يداها وقدماها لا تتحركان ، نظر إليها ..

أعطاها أحدهم الجنيهات العشرة بعد أن جمعها من فوق الأرض ، ماتت يدها عليها ، نظرت إليه بعينين دامعتين ، ارتعشت ، نامت ، ... ومضى هو دامع العين ..

عصر الحزن

استسلم في خضوع غير مُرض للحياة ، لم يف مرتبه الشهري بأماني اهل المنزل . لم ينم ليلته ، طاف الغد بأمنياته المرتقبة ، تطلع للسقف والى شقوق الجدران والألوان الباهتة القديمة ، والى جسد زوجته المترهل، رنت في أذنيه لسعات لسانها التي اعتادها كل صباح وقبل النوم ، اعتادت أذناه سماع لهاث كلماتها المتبرمة به وبحظها العاثر ، ألقى بالغطاء جانباً ، فرك يديه في سعادة ، تطلع في شغف لصورة قديمة له وهو في شرخ الشباب . في غضون ساعات قليلة ستشرق شمس يوم جميل .

لم يمض بمفرده ، رافقه في رحلته ابنه ...

سمع ابنه بالمبلغ المنتظر ، وصفه بهدية السماء ، صاغ أحلامه فوق كتف أبيه ، تاقت نفسه لأشياء كثيرة لطالما اضطر الى حذفها قسراً عنه ، داعبته أماني وتلقفته ومضات وأفكار وشطحات ، كم تعثر بالأمس الحصول على القليل منها ، الحائط القائم سينهار ، سينزوى ، الطريق ممهد ، الغد أكثر إشراقاً .

لم تنس الزوجة نصيبها ، حلمت بدورها ، أحست أنها أكثر استحقاقاً منه شخصياً .

مضى الرجل بصحبة ابنه ، ماذا يفعل ؟ هل يبدأ من جديد ؟ كيف يبدأ ؟ هل ..؟ تتابعت الأسئلة الهرمة تغزو خلايا العقل الذي تجاوز

الشباب ووقف عند حافة الكهولة ، أما الفتى ففكر بعيون الشباب وجنون الحياة ، تشعبت رؤى الفتى ، تشتت ذهنه ، سحابات قاتمه سوداء لم تستطيع أفكاره إختراقها ، الجميع من حوله يلهثون ، يشيدون صروح غدهم من ثنايا الأمس الذي ولى من عمر الرجل .

امتدت يد الرجل ليوقع باسمه ، ارتعشت يده ، اهتزت أطرافه ، لم يلمس من قبل مثل هذا المبلغ الضخم ، ها هى مكافأة نهاية الخدمة بين يديه ، أسرعت يد الفتى في مهارة تحصى رزم الأورق المالية ، أسرع يضعها بحذر في الحقيبة الصغيرة التي يحملها .

في الشارع الكبير ، ورغم الزحام واللهاث والعوادم والألوان المتباينة ، كان كلاهما يحلم ، لم يحاول أيا منهما أن يبدد صمت الآخر ، وأد كل منهما الفكرة، تسارعت الأحلام رغم الزحام تصنع صور الغد الحالم .

ماكاد الرجل يعبر الطريق ، دفعته يدٌ أمام سيارة مسرعة ، قذفته السيارة ، استسلم الرجل للرقاد ، لفظ أنفاسه بين يدي ابنه ، والفتى لا يزال قابضاً على الحقيبة بقوة غير عابيء بمصير أبيه ، لم يهتم بما كانت تقذفه به عيون أبيه .. من لعنات ..

البداية

جلس مقهورا ، تابعت عيناه الصرصور المتحرك فوق الجدران ، تأمله وهو يمضي في زهو ، الفراشة بدورها كانت تتجول في حرية ، تطير وتهبط وتصعد ، أما الفأر الصغير فلا يعيره اهتماما ، يقرض القوائم الخشبية لدكته المتهالكة ، البرغوث بعد أن يمتص دمه يلدغه ، يرتعش جسده ويحس بوخزته بعد أن ظن أن جسده قد تبلد مثل عقله .

نداءات عقله كانت غريبة .. ثائرة .. كانت تطالعه بالحياة مثل سائر الكائنات ، أحس بالعجز وغمره الخوف واهتزت أنامله وأسبل جفنيه وحاول النوم ، غاص في أحلام عقله الكامنة ، جلس في فراشه ، مشاعر غريبة ونداءات أغرب بأن يهجر الصبار صبره ، أن يدارى عجزه وقهره .. نداءات لنباتات الصبار أن تتقدم بخطى واثقة لمجارى المياة والسهول الخضراء .. تتابعت النداءات .. قفز من مكمنه ، شهر سلاحه وبضربة واحدة أسقط الفراشة أرضا وأسرع يدهسها بقدمه ، أمسك الحذاء البالى وتأمل الصرصور ، تقابلت عيونهما في تحدٍ لم يحفل به الصرصور ، ضغط على أسنانه بقوة ، وبسرعة البرق أطلق حذائه فسقط قتيلا في الحال ، جلجت ضحكاته وأعلن بصوت جهوري انتصاره وهو يقفز عاليا ، نظر للفأر .. ضحك الفأر ساخرا .. كانت نظراته أكثر سخرية منه .. أمسك العصا وحركها بين يديه كبهلوان ، عزف الفأر عن قرض القائمة

الخشبية .. في تحد بالغ وقف كلا منهما وجها لوجه .. عزفت الموسيقى وتقدم كل منهما صوب الآخر ، لم يستطع أي منهما أن يلحق بالآخر الهزيمة ، أخيرا وبعد عناء استطاع أن يهزم الفأر .

غرق جسده في العرق وأحس بالتعب ، لكن زهو الإنتصار عليهم أشعره بإنسانيته .

خلع ملابسه ، وبعد مداورات قبض على البرغوث الذي امتص دمه ، فركه بين أنامله حتى تفرق دمه بين أصابعه .. مشاعر غريبة تملكته ، تنفس بعمق وبشعور لا إرادي سحب عصاته وعزم أن يذهب من فوره إليهم .

ضحكوا منه وهو يتقدم صوبهم ، لم يشهروا أسلحتهم ولم يهتموا كثيرا بمقدمه ، المقهورون أمثاله يتأملونه من خلف النوافذ والأبواب ، يستغربون جنونه، لم يتوقف ، رفع عصاته ليدافع عن كرامته التي أهدرت، لم يصدقوا عيونهم ، حاول أحدهمْ أن يسخر ثانية منه ، بضربة واحدة أسقطه غارقاً في دمائه علي الأرض ، خافوا .. اهتزوا .. وفي غمرة الخوف ضغط أحدهم على الزناد وانطلقت رصاصة ... سقط قتيلاً في الحال ..

انطلقت الزغاريد من خلف الأبواب والنوافذ .. فتحوا الأبواب والنوافذ ، صرخوا مرة واحدة .. اهتزت الأبواب .. خرجوا ..... للبداية ..

نــوم الخــرفان

" صباح الخير "

توقف أمام المرآة بعد أن أنهى حلاقة ذقنه وطيبها بالروائح الذكية التي في متناول قدرته ، أحس بالإنتعاش ، لم يحفل بنشــرة الأخبـار الـتي يبثهـا جهـاز الرديـوا، مذابـح المسـلمين في أرجـاء الدنيـا ، الحــروب الطائفيــة والقبلية، آخر أخبار العلــم والهندسـة الوراثيـة وغــزو الفضـاء . في أنبـاء قـصيرة وسريعة ، سهرات الليلة وأخبار الفــن . رشـف كـوب الشـاى ، أشعل سيجارته الوحيدة ، حمد الله أن زوجته وأولاده مازالوا يغطـون في النوم ، ألقى بتحية الصباح على نفسه في المرآة، سار في الشارع الطويل، لم يعبأ بأي شئ من حوله .!

" صَـفْـــعَة "

اشترى جريدة الصبــاح الأسبوعيه ذات العنـاوين المثيرة ، تصـدرت صفحتها الأولى صورة بحجم كبير لفنانة ، وأسفلها – وبالخط العريض – حديث عن قصة مثيرة ، وفضيحة يتحدث عنها الناس ، قلــب الجريـدة ، امتص لعابه وهو يدندن بكلمات وعبارات السـطور المكتوبـة ، ابتسـم ، حيًا في نفسه ديمقراطية الفضائح .!

مازال الشارع هادئا ، نسمة الصباح لم تكن باردة وإنما منعشة ، لم يجد صعوبة في أن يقرأ الافتتاحيات الكبيرة ، اصطدم دون وعي بجندي الحراسة المكلف بالمراقبة في الكمين الكائن في منتصف الشارع ، هم أن يعتذر ، استرد الجندي وعيه وبسرعة نظر إليه بقرف بالغ ، أخذ يكيل له السباب ، لم يستطع وقف حديثه المقزز وكلماته الطائشة ، تصنّع الثبات والجندي يلعنه ويلعن من خلّفوه ، بلهجة شبه واثقة سأل الجندي عما فعله حتى يحدث منه كل هذا !! ؟ ضرب الجندي كفّا بكف وخرج عن طوره ، نعته بالجهل وعدم تحمل المسئولية، وفي عبارات سريعة أخذ الجندي يستعرض أهمية الحراسة وأصول الجندية . في النهاية قال له : " شايل جورنال في إيدك وعايز تعمل فيها واد مفتّح .. وانت أعمى ، وتلاقيك ما تعرفش تقرأ ! " .

لم يدر بنفسه عندما وصفه الجندي بالجهل ، حاول أن يرد السباب للجندي فصفعه الجندي فوق وجهه ، طار صوابه ، أحس بقوة الضربة كأن ناراً خرجت من عينيه ، كاد أن يهجم عليه ، أسرع جندي آخر لنصرة زميله ، كبل يديه من الخلف ، سقطت الجريدة على الأرض ، صفعات متتالية ، صمما أن يذهبا به الى قسم الشرطة ، تجمع بعض الناس ، اعتذر معظمهم للجنديين ، بعد جدل طويل تقبل الجنديان الاعتذار وهما يشيحان بوجهيهما عنه ، تحت إصرار المارة اعتذر هو

أيضاً لهما . سمحا له بالمضي باشمئزاز ، ناوله أحد المتجمعين الجريدة من على الأرض ، أخذها ومضى وهو لا يرفع عينيه .!

" ابتسامة "

جلس مهموماً طوال يومه ، آثار الصفعات في قلبه ، تمنى أن يفعل شيئا لكنه كان يدرك تماما أنه لا يستطيع ، حاولت احدى الموظفات أن تستأذنه في ساعة قبل موعد الانصراف المحدد ، نظر إليها بضيق ، ابتسمت له ، صمّم على رأيه ، غمزت له بعينها ، وهو مازال مصرا على موقفه ، عادت إلى مكتبها ، أخذت تمضغ قطعة اللبان بعصبية بالغة وهو يختلس النظر إليها ، أخرجت حقيبة يدها فوق المكتب ، أخذت تعدل من مكياجها وتنظر في المرآة الصغيرة المثبتة بداخل حقيبتها ، لوّنت شفتيها ووجنتيها جيّداً ، وقفت ، استأذنته في الدخول للمدير ، أومأ برأسه مجيباً وهو يسخر منها فالمدير لن يوافق لها للحظات وليس لساعة ، خرجت وابتسامتها أكثر اتساعا ، مالت عليه بعد أن وضعت يديها فوق المكتب فانفرجت فتحة الصدر لفستانها أكثر ، نظر نحو الخندق و لم يدرك النهاية ، ابتعد بنظره سريعة ، نظر إلى عينيها فتحركت شفتاها ، بدلال قالت :

" سيادة المدير وافق .. " !!!

" تـذمّــر "

طرق الباب بعنف ، انفـرج البـاب ، قابلتـه ابنتـه بابتسـامة واسـعة ، تجّهم في وجهها ، سـأل عـن ولدّيـه ، أجابتـه الفتـاة بأنهمـا خرجـا منـذ الساعة العاشرة صباحاً إلى مركز الشباب ، أخذ يلعنها وهو يصيح مناديا زوجته التي أقبلت عليه متسائلة ، طلـب منهـا الإسـراع بـإعداد الغـداء ، بكى الطفل الصغير ، أسرعـت الأم إليه ملبية وتجاهلتـه ، عـاد مـن جديـد يسألها أن تسرع ، ناولت الطفل لابنتها التي لم تتعد السـابعة ، طالبتـه أن يصبر بعض الشئ فمازال الطعام لم ينضـج بعـد ، إضافـة الى أن الولدين سيحضران بعـد سـاعة مـن الآن ، حـاول أن يعـترض ، ابتلـع كلماتـه ، نظرت إليه زوجته وعلى وجهها تذمّـر واضـح ، انطلقـت نحـو المطبـخ ، ارتفع صياح الطفل وصوت الفتاة وهى تحاول تهدئته مدندنة بأغنية قديمة تحفظها من زمن طفولتهـا ، الصغـير لا يسـتجيب ، والفتـاة لا تتوقـف ، صوت الزوجة يأتي من الداخل وهي تصرخ بالفتاة تطالبهـا بـأن تتمشـى بالطفل ، أحس بالضيق، ماذا يفعـل ؟ الجـوع يعبـث بمعدتـه في قسـوة ، همهم بكلمات غير مفهومة، وأسرع نحو حجرة النوم !!!

" جـــوع "

حاول أن ينام فلم يستطع .. تقلب في الفراش ، كلمـا أغمـض عينيـه تذكر يومه منذ الصبـاح ، تحسـس موضـع الصفعـات ، أحـس بـألم فـى

تنفسه ، وضيق في صدره ، تحركت أنامله بعصبية وتجمعت في قبضته ، ضرب حاجز السرير الخشبي بقوة ، حاول أن يذهب بفكره نحو أي شيء ، تذكر الموظفة الحسناء وابتسامتها الخبيثة ، وخروجها رغما عنه ، تذكر زوجته وكيف تعامله ، صرخات طفله ، قام من نومه ، خرج وهو عازم أن يلقى بكل ضيقه وتوتّره وتذمره في وجه أولاده ، قرصه الجوع ، فأصبح أكثر تذمرا . باءت محاولاته بالفشل عندما وجد الطعام فوق المائدة ، والولدان قد حضرا ، والجميع في انتظاره ، جلس وأكل بنهم بالغ ، وكأنه ينتقم من الطعام ، يبتلع معه آلامه !!

" رجـــولة "

استعد بعد الأكل للمعركة بكل أسلحته ، مصمماً أن يفجر طاقته الكامنة ، عازماً أن يقهر الأعداء ، مهموماً بالثأر لرجولته التي أهدرها جندي الحراسة الجاهل وزميله ، قدرة عجيبة تدفعه دفعا نحو الهجوم ، كل أعضاء جسده ثائرة ، دخلت زوجته حجرة نومه ، بعد أن أودعت الطفل الصغير مخدعه ، خلعت عن نفسها ملابسها ، واكتفت بالقليل ، تزينت ، ألقى هو بملابسه تباعا ، أضاءت الضوء الأحمر الخافت إيذانا ببدء المعركة ، استعد للنزال والقتال ، جذبها بقوة ، استسلمت بدلال ، وبآهة بعثت في أشلاء جسده قوة ، أعاد الكرة من جديد بقبلة طويلة ، وكأنه يصرخ في وجه الجميع ويعلن ، تراخت أناملها بين يديه ، همست

برغبة ، في همسها أحس بأنها عدو يطالبه بالرحمة ، لكنه لا يبالي ، واصل المعركة في قوة ليظهر قدراته ، تتوسّل هي فتشتد أعصابه ، شعور غريب بالزهو والرجولة وهو ينازل ، دقائق معدودات ، وفي خضم سعادته ، يصرخ الطفل الصغير فتتداعى أعضاؤه ، وتخفت همساتها ، ويعم الصمت ، تقهره صرخات الطفل المتتالية ، يحاول إكمال المسيرة ، تدفعه الزوجة بعيدا ، يحاول معها ، لكنها كانت أكثر قوة ، تخرج من تحت ذراعيه ، تلقى فوق جسدها بلباس شفاف ، تذهب للطفل وتداعبه، ترفعه بين ذراعيها ، تطوف به أرجاء الحجرة ، يحس بالانكسار و العجز ثانية ، ينتظر أن ينام الطفل ، أمل يحدوه أن تعود زوجته الى ساحة المنازلة ليحرز انتصارا ..!!

" نـوم "

نام الطفل ، عادت الزوجة للفراش ، داعبته ، كسل غريب في جسده، التصقت به ، تصنع الإقبال عليها ، ذهبت النشوة التي كانت تغمر جسده ، قبّلها ، قبلته في نهم وشوق ، حاول أن يستعيد قدرته التي كانت ، ذهبت آماله، سقط سيفه الذي هم أن يرفعه دفاعا عن كرامته ، غرقت جبهته في العرق ، لم تفلح محاولاته ، صرخت فيه زوجته ، لعنته ، قامت من فورها ، ارتدت ملابسها وغادرت غرفته ، وألقت بنفسها في الفراش بجوار صغيرها ..!!

الميزان

وفود من كل البلدان قادمون ، يتناقشون ، يختلفون وربما يتفقون .

قبل الدخول وقف الجميع أمام المبنى الفخم ، كل ممثل دولة يتقدم .

أمام الباب يجلس الحارس على كرسيه الضخم بملبسه ذو الألوان المتباينة .. تحت قدميه ميزان حديد ، أحدث ما أنتجته المصانع العالمية ، قبل الدخول الى القاعة الكبيرة يقف كل ممثل على الميزان بعد أن يخلع ملابسه بالكامل ، إلا من ورقة توت صغيرة ، يقرأ الحارس ما يسجله مؤشر الميزان ليحدد المكان الذي يجلس فيه صاحبه ، الصفوف الأمامية لأصحاب الوزن الثقيل ، الأوزان الأقل في الصفوف التي تليها ، أصحاب أوزان الريشة يجلسون في الصفوف الخلفية ، أما من هم بلا وزن فإنهم أصحاب كراسي البنوار العلوي ، لا يتحدثون ، لا يتناقشون، لايبدون رأيا .

دخل هو ، تجرد من كل ملابسه ، لم يسجل الميزان أية قراءة .



إرهـــابـــي

أحس بالضيق ، تألم في صمت ، لم ترحم صمته ، لم تشـرق الشـمس بعد ، توضأ وصلى ، أخذ يتمتم بآيات من القرآن الكريم ، لم تصمت ، عادت من جديد تضرب بسـياط لسـانها هدوئه ، انتابـه شـعور غريـب احس معه برغبة شديدة في ضربها ، استعاذ بالله ، أخـذت تنـدب أمامـه حظها العاثر الذي أوقعها بين براثن فقره ، استعاذ بالله ثانية ، لم يتنـاول افطاره ، جر أذياله ومضـى ، تعقبتـه حتـى البـاب بكلماتهـا وسياطها ، خرج للشارع ، أحس بالجوع ، اشترى سانلوتش واحد وخمس سـجائر من الحاج ابراهيم البقال .. مضى .. الطريق طويل ، جلس على المقهى ، صفق بيديه ، أسرع عامل المقهى اليه ، اخـرج سانلوتشـه وطلـب كوبـاً من الماء وفنجاناً من القهوة ، وضع سـاقاً فـوق أخـرى ، التهـم طعامـه ، انتفخت اوداجه مع الرشفة الأولى لقهوته المضبوطة ، أخذت عيناه تجوس الارجاء حوله ، اسرف النظر في لوحة بالجدار المقـابل ، نظـر إلي سـاقيها العاريتين ، امتص لعابه ، تذكر ترهل سيقان زوجته وشحمها الكثيـف ، عاد من جديد ، سرقت انتباهه فتاة رشيقة تمر أمام المقهى ، بلهجة آمـرة استدعى العامل : " يا ولد " ! تقدم العـامل بحيويـة الصبـاح وهـو يحمـل صينية بين يديه ويحركها بحركة بهلوانيـة وخفـة ورشـاقة يحسـد عليهـا : " نعم يا استاذ " .

أخذ يعبث بمحتويات جيوبه ، أخرجها ، تذكـر انـه لا يمتلـك شيئاً ، أحس بغصة في حلقه ، زاغت عيناه ، استجمع قواه المنهارة ، أمر العـامل بكوب آخر من الماء ، جلس ، أومأ الفتى مستجيباً لطلبـه وغـادره علـى الفـور ، مـاذا يفعل ؟ تسـاؤلات كثيرة طرأت على رأسـه ، نظـر إلى معصمه، سـاعته العتيقـة ، هـل يوافـق ؟ لا مفـر ، اشـعل سيجارة ثانيـة علّ فكـرة تواتيـه ، هـل يمـضى الآن ؟ .. مـاذا يمكـن أن يحـدث لـــو أمسكوا بي ؟.

اخذ يقلب الموقف على كافة وجوهه ، وقـف ، وبخطـى ثابتـة اتجـه نحـو المعلم مباشرة ، ارتعشت اطرافه ، امتص لعابـه ، حـاول الكـلام ، تلعثـم وعاودته الرعشة صاح به المعلم : أي خدمة يا استاذ ؟ ... " انـا ... أنـا يا معلـم ... " تلعثم مرة أخرى ، لم يستطيع اكمال حديثه ، خلع سـاعته من معصمه ، ابتسم المعلم بسخرية ، تحرك من مجلسه ، أمسكه من قفاه، فأر بين براثن أسد ، ألقى به في جوف الحجرة الداخليـة للمقهـى ، أمـره بالعمل لمـدة سـاعتين في غسـل وتنظيـف الأكـواب الفارغـة ، حـاول أن يبدي اعتراضاً ، أسعفه المعلم بصفعة ، حاول ، تلاها بـأخرى ، استسـلم للعمل ، مازال تأثير الصفعة ، حرارتها تخرج من مسـام وجنتـه الضـامرة لكنها أخف وطأة من سياط زوجته ، انهمك في العمل ، توقف للحظة ، نظر للخارج ، اخرج رأسه من الباب ، بنظرات حـادة مـن المعلـم أعـاده

من جديد للداخل ، خرج من خلف مكتبه ، تقدم صوبه ، تراجع للخلف ، التصق بالجدار .

فك أسره ، هرول مسرعاً ، يعمل كاتباً في قسم الشرطة ، انطلق مباشرة صوب عمله ، امام القسم أكثر من سيارة للأمن المركزي ، هرج ومرج ، تقدم ببطء ، تأخر كثيراً عن موعده ، لم يعتد التأخير ، تسلل ، أصوات ركلات في الداخل ، طرقات فوق المكاتب ، هرولة ، جلبة عالية ، حاول أن يدخل خلسة، لمحته عينا القائد ، بصوت جهوري استدعاه ، تقدم ورعشة تأخذ جسده كله ، استجمع قبضته وبقوة طرق المكتب أمامه ، اهتز .. زوجته ... المعلم ... القائد الآمر الناهي ، كال له السباب بصوت اهتزت له اركان الحجرة اهتز داخله ، انفك أسر بوله قطرات ، بلل سرواله الداخلي ، هدأت أعصابه قليلا ، أمره ، تقدم منكس الرأس ، أراد الكذب ، لم تخرج كلمة واحدة ، حاول ، لم تجد محاولاته ، خرج من خلف مكتبه الضخم ، امسك بمعطفه البالي من فوق كتفه بتقزز ترك معطفه بقرف ، نفض يديه ، دار حوله ، ركله بقوة ، التصق بالجدار، عاود الكرة من جديد ومسدسه فوق المكتب ، لعنه ، تمنى الموت ، لا يستطيع أمامه شيئاً ، تمنى البكاء خارت قواه ، صاح به: " نايمين في بيوتكم والبلد مقلوبة ... البلد الكلاب يحرقوها وانتم الواحد يجي الساعة عشرة ويروح الساعة عشرة وربع

في ثورة غضبه ، امسك بـه مـن حديـد ، عالجـه بضربـة قويـة ، اصطـدم بالمكتب ، شجت رأسه ، نظر لدمائه ، تحركت اشلاء جسده المنهار ... خوف ... رعب ... توجس ... انهيار ... تمرد ...

وقع المسدس بـين يديـه اثـر اصطدامـه ... امتـدت يـده الى المسـدس ... صوبـه ناحيتـه، انطلـق ، اهتـزت الارجـاء ، تعـالت الصرخـات ، القـى المسدس بعيداً ... هوى بجثتـه الضخمـة بجـواره ... ضحـك بهسـتيرية ، رفع يديه ، قادوه ، أوسعوه ضرباً ، ألقى منفرداً في زنزانة خائر القوى لا يقوى على الحراك ، خرجت الصحف الرسمية في اليوم التالى :

" ارهابي ... يقتل قائد شرطة "

" ارهابي ... يكسر حاجز الأمن ويقتل القائد "

" عامل في الشرطة عميل للقوى الأجنبية "

بينما عناوين صحف المعارضة :

" بطل مصري يكسر حاجز الخوف "

" تمثال للرجل الذي ... قتل .."

الدجاج

كان خائفاً ، تقوقع بجوار قفص الدجاج الضخم ، ألقى بنظرة عبر حواجز القفص ، على الجهة الأخرى للقفص يتحرك التاجر بنشوة ونشاط ، سكينه لا تفتر ، تتقدم يد التاجر الى داخل القفص ، تنفجر أصوات الدجاج قبل أن يتمكن من القبض على إحداهن ، يعاودن الصمت من جديد الى أن تمتد يد التاجر مرة ثانية .

أسند رأسه للقفص ، تأمل الدجاج ، وجدها بمفردها بجواره مباشرة لا يفصلهما سوى الحاجز الصغير ، ساكنة لا تُبدي حراكاً ، حاول أن يداعبها بإصبعه فلم تستسلم لدعابته ، حاول أن يهاجمها بيده فلم تدافع ، متكورة ، نظر الى عينيها ، ماتت دموعها ، حاول أن يبادلها حديثا ، لم تستجب في بادئ الأمر، ما لبثا أن قطعا خوفهما بحديث هامس ، تآلفا ، كسر لها الحواجز الخشبية الصغيرة ، طلب منها أن تسرع بالفرار ، ابتسمت في مرارة ولم تخرج ، حاول ثانية لم اتعره اهتماماً ، كانت تدرك أن الجميع سيطاردها . لا مفر ، الجميع سيساعد التاجر وسكينه .

امتدت يده وحطم المزيد من الحواجز التي تكفل له الدخول للقفص ، دخل الى القفص خلسة ، تقوقع في الركن بجوار الدجاجة انتظاراً لدوره ..

مطلوب أفضل جحش

-١-

ضو ضاء غريبة ... صياح أطفـال ... منـادٍ صوتـه يفـوق الجميـع قوة، ينتهي من النداء فيعم الصمت الجميع ، يتسّمر الأهالي في أماكنهم ، أمام المنـازل ، فـوق المصـاطب . يطلبـون مـن الصبيـة أن يصمتـوا حتـى يتأكدوا مما تسمع آذانهم ، يعود المنادي من جديد :

(يا خلق يا هووه .... الصاحيين يبلّغـوا النـايمين ... حمـارة العمـدة طالبة العشار ... والجحش اللى هتقـع عليـه العين ، صاحبـه هـا يقبـض عشر تلاف جنيه بالتمام والكمال !!!! الحاضر يبلغ الغايب . يـا خلـق ياهووه .....) .

النداء يتردد ، العيون لا تصدق ؛ تلتمس المعونة في عيـون الآخريـن ، تتقابل ، تتسـاءل في صمـت ، يعـود المنـادي مـن جديـد ليؤكـد حقيقـة الجائزة الكبرى .. الكلاب صامته وكأنهـا تنعي حظهـا ـ!! متى يجيئ الدور عليها ..؟؟؟

-٢-

حُدّد الموعد ، بعد شهر كامل من تاريخ الإعلان ، اسـتراحت ذكـور الحمير من عناء العمل الشاق ؛ أكلت ما تشتهي ، مـا حُرمـت منـه منـذ ولادتها . لم يتوقف الأمر على الطعام فحسـب ، كثـيرون مـن أصحـاب

الحمير ذهبوا خلسة إلى الشيخ عبد الباسط ليصنع لهم تمائم وتعاويذ تقي حميرهم الحسد . أمام هباتهم التي قدموها له صنع الأحجبة للحمير وهو يلعنهم ، غير أنه مالبث بدوره أن صنع تعويذة حقيقيه لحماره ، ليفوق الجميع ، ويحظى بشرف الانتساب لزريبة بيت العمدة ، فلم يركبه ، ولم يرهقه في ترحال ، وأكثر له من العلف والفول والشعير .

- ٣ -

طوال الليل ... ونهيق الحمير لا ينقطع ! ضجيج لم تألفه البلدة من قبل ، استردت الحمير عافيتها ، لم تعد تتمرغ في التراب ، بل سحبها أصحابها قسرا إلي الترعة ، وغسلوها بالصابون أبو ريحة ! تقبل الناس حمل أمتعتهم وأطفالهم بكل سرور ليريحوا حميرهم . ازداد دلال الحمير ، أصبحت تمتنع عن أي طعام يقدّم إليها إلا ما تشتهي ، تمردت على وضعها المألوف فصارت تضرب بخلفيتها وتثور وتعض ، تعتدي على الحيوانات الأليفة الأخرى ، وأصحابها يتحملونها ، فالغد بآماله مرهون بالحمير ، وبقدرتها !!!

- ٤ -

بعد أيام عاد صوت المنادي من جديد يخترق الجدران والآذان . لكنه هذه المرة كان يعلن عن مكافأة مماثلة لأفضل حمارة في البلدة كلها ، فالعمدة يطمع في بغل قوي من نسل حصانه القوي وشديد البأس ، ولو حدث

تزاوج بين حصانه وحمارة قوية فإن النتاج سيكون بغلاً عفياً لا مثيل له في كل القرى المجاورة !!

أصاب الناس النهول ، هوى الخبر فوق رءوسهم ، أسرعوا بالاهتمام بإناث الحمير ، كل منهم يلبي طلباتها ، توقف سير العمل في الأرض ، تحملوا هم أكثر في سبيل أن تنال الحمير - ذكوراً وإناث - قسطا وافراً من الراحة ، تكاسل الأبناء عن المدرسة فلم يسألهم ذووهم ، عاشوا في انتظار غد يأتي لهم بالجائزة الكبرى ، راودتهم الأحلام ، أقاموا في خيالهم موائد عامرة بأمانيهم المقهورة !!!

- ٥ -

مضى الشهر بكامله ، الكل يترقب .. لم يعلن بيت العمدة عن موعد العرض لاختيار الجحش والحمارة الفائزين .. ترددت الشائعات : البعض قال بأن " حمارة العمدة أصابها المرض " .. البعض الآخر نفى تلك الإشاعة وقال " إنها بلغت سن اليأس " ، ولن تستطيع العشار . عاد السؤال عن حالة الحصان أيضا ، وجاءت الإجابات غريبة : " الحصان متعال ويرفض التزاوج من حمارة من الرعاع " .. " الحصان أصابه الإحباط منذ أقام علاقة بفرس شيخ البلد ، واكتشف أنه ضعيف جنسياً، ومن يومها وهو يعاني " . ورغم كل تلك الشائعات فقد ظل الجميع ينتظر !!!

ذات مساء خرج عليهم نائب العمدة وطمأنهم أن الأمور تسير على مايرام ، وإنه إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد أو الشهر القادم .. أو العام القادم . يبتلع أصحاب الحمير أحلامهم ، كل منهم يخشى الآخر ، يأخذ حذره ، يحجب حمارته أو جحشه عن العيون .

-٦-

تزايد الهمس الحذر .. مضى ما يقارب ستة أشهر والحمير ترتع في النعيم والدعة وليس هناك حس أو خبر عن الموعد المحدد !!

أيام قليلة وعاود المنادي طوافه يبشر أهل القرية برفع قيمة المكافأة للجحش أو الحمارة الى خمسين ألف جنيه !! أحيت البشرى في نفوسهم الأمل من جديد ، زادوا من اهتمامهم بحميرهم ، حاولت بعض القرى المجاورة أن تشارك في المسابقة ، قامت المظاهرات ، وطافت بدروب القرية وحتى حدود لقرى المجاورة، ونادوا بأعلى أصواتهم بأن حميرهم ينبغي أن أولى .! أمام رغبتهم وافق العمدة على أن تقتصر المسابقة على حمير البلدة فحسب . عندها تعالت هتافاتهم وانطلقت حناجرهم تدعو له ولحمارته وحصانه بطول العمر ، ه .

-٧-

صحا الناس على خبر غريب ، لم يصدقه أحد ، رغم أن نائب العمدة قد أعلنه على الملأ وهو يبكي ، احتشد الناس حوله وهو يخبرهم بأن حمارة

العمدة قد وصلت لسن اليأس ، و لم يفلح الأطباء في معالجتها طوال الفترة الماضية ، أما الفرس فإن حالته النفسية قد ساءت وعافت نفسه الطعام والشراب ، و لم يعد يجدي معه علاج .

- ٨ -

أمام الجموع المحتشدة ، أقسم العمدة أن هناك فرصاً أخرى .. وأن الغد سوف يحمل لهم بشرى أكبر ..!!!



دوار

حطت الكتيبة المصرية رحالها قريبا من حفر الباطن ، قوات من مختلف أنحاء العالم ، أعلام متباينة ترفرف ، جلس أفراد الكتيبة في موقعهم الجديد ، تعالت ضحكاتهم قبل أن يأتي صوته يطالبهم بالهدوء والصمت ، أصاخوا السمع ، صرخ بأعلى صوته فجأة : " الله أكبر ... الله أكبر " ، تملكتهم الدهشة ، لم يكن أحدهم قد سمع جيدا ما ردده جهاز الراديو الصغير الذي يحمله في يده ، راقبوه وهو يقفز قفزات متتابعات والفرحة تقطر من عينيه ، تقطعت الكلمات ثم تجمعت حروفها في آذانهم بصعوبة لتصل المعاني التي يرددها عليهم ، أخيراً فهموا ما حدث :

القوات العربية العراقية أطلقت صاروخا على " تل أبيب " فأصاب قلبها .. هللوا جميعاً في نفس واحد : " الله أكبر ... الله أكبر " .

دخل القائد الى الخيمة ، وقفوا لتحيته ، طالبهم بالاستعداد ، فالقوات الأمريكية والدولية حذرت من هجوم عراقي وشيك ، وعلينا مواجهة القوات العراقية بكل حزم ، نظروا للقائد ، شروط الجندية الطاعة ، ذهبت الابتسامة ، أخذ كل جندي يعد عدته .. مازال المذياع يردد ....



أبو الشوارب

أسرع بحماره ، رائحة طبيخ الملوخية تتجاوز المسافات ، تخترق أنفه ، الشمس تقترب من الغروب ، بكعبي قدميه لكز بطن حماره ، أسرع ، أخذ يعبث بشاربه في نشوة ، الليلة هي الخميس ، ليلة الجمعة ، تمتم في سريرته : ليلة مفترجة ان شاء الله .

استند على فأسه ، قفز من فوق ظهر حماره ، قيده خارج الدار ، هلل ابناؤه لرؤيته ، داعبهم بصوته الأجش الحاني ، حمل أصغرهم ، اخترق به فناء الدار ، وجدها جالسة أمام " الكانون " ، رائحة طبيخ حقيقية تُبعث، تحركت امعاؤه بقوة ، استدارت هي ناحيته ، غمز لها بعينيه ، ابتسمت ، وجهها يلمع بحبات العرق ، بكى الصغير من اقتحام الدخان ، دمعت عيناه ، احتضنه بقوة ، وخزها بقدمه الحافية في مؤخرتها المفرطحة على الأرض ، انتفضت وكشرت ، غيرت جلستها الى وضع القرفصاء ، قالت له بدلال : " الوزة دي عجوز " .! إبتسم لها وقال بصوت ناعم : " ملعون أبو الوز .. أنت اللي وزة وبطة كمان " .

غمزت له بعينها ثم التفتت عنه صائحة : " واد يا محمود ، خد أخوك الصغير من أبوك واطلع بره الدخان ها يعمي عينيه " .! أجفل ، نظر خلفه ، رأى أكبر أبنائه قادماً ، كتم ضحكته ، عاد لصوته خشونته وهو

يعيد على ابنه ما قالته له أمه . برفق أسلم الطفل الصغير إلى أخيه وهو يقول : " خلي أختك تناولني الجلابية النضيفة عشان ألحق صلاة المغرب جماعة في الجامع " . سألته : " هوه انت اتوضيت ؟ " ، أجابها : " خدت غطس في المصرف قبل ماآجي " .

أعاد فتل شاربه ، بدا أكثر لمعاناً بينما طرفاه يقف عليها الصقر كما يقولون، نظرت هي إليه نظرة تبلغه بها أنها ستكون في إنتظاره آخر الليل، نظر هو إلى الأولاد وخرج .

بعد الصلاة خرج الى المقهى هو وبعض المصلين ، جلسوا صامتين ، أسرع فتى المقهى إليهم ، نظر هو اليه وقال دون مناسبة : " العز .. وز " ! قطع أحدهم صمته وسأله : " ماذا تقول يا أبو الشوارب؟"، ضحك طويلاً قبل أن يجيبه : " أيوه يا حبيبي .. العز .. وز ، والفقر كتاكيت .." ! . قال له صاحبه وقد انتقلت اليه عدوى الضحك : " على كده احنا سهرتنا للصبح يا أبو الشوارب ! " . أسرع وهو يمص آخر رشفة في كوب الشاى :

- لا يا حبيبي ... أنت وحبايبك آه .. أما أنا .. فلأ..

انخرطوا جميعاً في الحديث وتبادلوا النكات والقفشات ..

- مال شنبك منور الليلة دي ..

- مفتول بدهن وز وحياة أبوك .. أبوك اللي ما شافتهوش عيني ..

- ده بقى أطول شنب في البلد ..

انتشى بالعبارة الأخيرة ، إهتز طرباً لسماعها ، ابتسم في تواضع مفتعل .

فجأة توقف الجميع عن الضحك ، عمهم الصمت ، توقف فتى المقهى بمشروباته فوق يديه كتمثال ، توجهت الأنظار نحو القادم ، استند بيده الى جذع شجرة تتوسط فناء المقهى حاملة سقفه ، هز الجذع بكل قوته كأنه يستعرض قوته أمامهم ، لم تكن الشجرة بالقوية الشامخة الضاربة بجذرها في الأرض ، إهتز السقف ، وقعت بعض عيدان الذرة التي تعلو السقف ، آثار غبار ملأت المكان ، عض أبو الشوارب على أسنانه ، تمنى أن ينكسر جذع الشجرة ليسقط السقف فوق رأسه ، كان إثنان من الخفر يقفان من خلفه ، خرج عن صمته صائحاً بصوت حاول أن يبدو أغلظ ما يكون :

- أنت يا ولد انت وهوه .!

نظروا جميعاً إلى بعضهم ..

- واد يا أبوالشوارب ، شنبك ...

وقف عن كرسيه المتداعي ، تقدم صوبه ، تخوف ، انكمش ، همس لنفسه : " ياريت كنت شربت الشاى في بيتي ، الله يخرب بيت الوز ، ماله الجبن القديم والكسرة الناشفة ، جالك الموت يا تارك الصلاة " .

كانت كل العيون ترقبه ، انصرف أغلب جلسائه من الفتحة الخلفية للمقهى، أضحى بمفرده ، ارتعد عندما رآه يتقدم ناحيته ومن خلفه الخفيران يقطر من عينيهما الشر ، صحيح أن له شوارب يقف عليها الصقر ، لكنها شوارب ملهون بدهن الوز ، أما شاربه هو فمفتول دون دهن ، وضع يده على كتفه بقوة ، اهتز أبو الشوارب ، حاول أن يتماسك ، هزه بقوة ، تمائل لهزته رغم ضعفها ، تصنع الضعف والوهن، حاول أن يدعي السقوط بين يديه ، لاحظ ابتسامة فخورة تعلو وجهه ، حمد الله في سريرته ، أعاده من سقطته، صفعه بقوة ، استسلم ، انطلق من فمه سيل الشتائم ، لم يفعل سوى أنه نظر إلى الأرض ، أفلته وابتعد بعض الشيء ، جلس الى أقرب مقعد ، التزما هما بالوقوف خلفه مباشرة .

انطلق نحوه فتى القهوة بعد أن فكت عقدتا لسانه وقدمه :

– " خدامك ياباشا .. تشرب إيه يا عمدتنا ...؟ "

وكزه بعصاه الغليظة ، كاد يقع على الأرض ، طالبه باستهزاء بالنهوض والمثول أمامه ، طلب منه أحد الخفيرين أن يأتي بالشاى المضبوط للعمدة ، أسرع الفتى لتلبية الأمر .

عاد هو للحديث مع أبو الشوارب الذي كان لايزال واقفاً عن بعد .. بدأ يكيل له التهم دون أن ينظر ناحيته :

- " أرضك الديدان فوق وشها أكتر م الزرع ، الحشيش الأخضر والهالوك قتل المحصول ، أرضك عالية يا أبو الشوارب ، يوم ما ترويها تغرق أرض جيرانك ، كل جيرانك بيشتكوا منك ، وأنت فرحان بجوز شنباتك اللي عاملة زي ديل جحش العمدة ، تكونش فاكر نفسك أبو زيد الهلالي يا واد ؟ الله يخرب بيتك وبيت اللي خلفوا أبوك .. " .

الجميع يعلمون إن أرض أبو الشوارب هي أحسن أرض في المنطقة ، وإن يومه كله من مطلع الشمس حتى غروبها يقضيه خادماً لها ، لكنه لا يجرؤ على مثل هذا القول أمام جبروت العمدة .

استسلم أبو الشوارب ، هو يعرف أنه إن إن تحدث بشيء أمامه فسوف تزداد التهم ، صمت وهو يتمنى أن يتحدث أحد من الذين تبقوا في المقهى ليأخذ دوره بدلاً منه ، لكن الجميع عمهم الصمت المخذول .. عاد العمدة للحديث بصوت أعلى هذه المرة :

- " يعني هوه كل كلب يربي شنبه يعمل كبير ، البلد دي مالهاش كبير واحد .. وكل شنب وله مقص يا أبو الشوارب .. ومن النهارده أنا هابقى مقص لكل شنب صاحبه فاكر نفسه راجل .. يا بلد نساوين . "

ثم أمر خفيريه بلهجة قاسية :

- خدوه على أوضة السلاحليك ..!!

في الحجرة المظلمة استأنس بحركة الفئران ، فكر في زوجته وفي ليلته الموعودة معها أنها تنتظره الآن ، فكر في الأوزة العجوز بلحمها الشهي ، أصبح طعم حلقه مراً مرارة الحنضل ، أخذ يدعو الله أن يفرج كربه هذه الليلة ليعود إليها .. ابتسم رغماً عنه .. لابد أن الأبناء نيام الآن ، سوف يتسلل بخفة الثعلب ، ويوقظها برفق ، لابد أن عينيها لم تر النوم ، لابد أن قلبها يحس بما هو فيه ، سوف يتسلل بحذر خشية ايقاظ ابنها الصغير الراقد لى جوارها ، وسيطفئ المصباح ....

أفاق من تخيلاته على صوت أحد الخفيرين يستدعيه ، لقد أمر العمدة بقص شاربه ، حاول أن يستعطفه ، بكى ، قبل أقدامه ، ضحك الخفر منه ، انقضوا عليه ، لم يتمكن من التملص منهم ، قيدوه ، دفن وجهه بشاربه في التراب ، رفعوه عنوة بين ضحكاتهم ودموعه ، أزال المقص شاربه من وجهه ، تركوه بعد أن أصبح كالأرض لجرداء بعد جمع المحصول . تحسس موضع شاربه ، لم يجده ، كانت دموعه المتساقطة فوق شفتيه باردة ، بينما آثار الأوزة العجوز لا تزال فوق شفتيه .

ألقى بشال عمامته فوق وجهه ، التمس الطرق البعيدة ، حمد الله أن الدنيا مساء ، تقدم صوب بيته ، كاد يطرق الباب ، أحس بخدر في ذراعه ، لم يستطيع أن يرفع يده ، وهنت عزيمته ، شل ذراعه بكى ،

جلس لدقائق أمام المنزل قبل أن يعيد طرق الباب من جديد ، مضى الى الداخل ..

سألته زوجته عنه .. ضحكتها المكتومة اخترقت أذنيه .. ارتمى في فراشه وأحاط وجهه باللحاف .. وبكى ..

الأبطـــال

وقـف العسكري في مجابهة العسكري .. الوزير .. الملـك ضـد الملـك .. تحركت القطع ، إزدادت حدة المجابهة .. احتمع الإثنـان علـى فكـرة واحدة هي حماية الملك ، حصنوه ، صف العساكر يتحرك للأمام فقـط ، ممنوع الرجوع للخلف ، الخيول والأفيـال يتحركـون حركـات متباينـة ، كل يحمل سلاحه ، الوزير يصـول ويجـول في ميـدان المعركـة ، أخذتهـم نشوة كاذبة ، من المنتصر ؟ من سيصفقون له في النهاية ؟ تبـاروا في قـوة وعنـف ، مـن يقـف في طريق الآخـر يسـقطه ، أو يحاول علـى الأقـل اسقاطه، عقولهم لا تعمـل ، حركتهـم تـم بفعـل خـارج عـن ارادتهـم ، صاغوهم بأفكار وبألوان مختلفة ، هذا صـاحب اللـون الأبيـض وذاك هـو صاحب اللون الأسود ؟ سقطت حصونهم تباعا وهوت العساكر وسـقط الفيل وصهل الفرس ، تناثرت أشلاء الأبطال .

انتهت المعركة ، جمعوهم ، أبيضهم وأسودهم ، ألقوا بهـم في خنـدق واحد ، في قبر واحد ، في علبة جميلة ، تجمعوا .. لكن بلا حركة ، أخيراً شعروا أنهم دمى متحركة ، اكتشفوا إنهم ينتمون لشجرة واحدة ، هـذا من الساق والآخر من الجذر ، كانوا نتـاج أسـرة خلايـا ، غصـن صغير

أسقطوا شجرته ليصنعوهم ، ويهذبوهم ، ويلونوهم ، هنا فقط افـترقوا ، صفوهم فوق الرقعة فقامت المنافسة.

ضحك المتنافسان عقـب اللعب ، قهقه جمهور المشجعين ، انتهت اللعبة بسقوط الجميع .. الأبيض .. والأسود .. معا .

ذات السبعين

لم يستقطب بعد شبق الشهوة عينيها ، لم تعرف قدماها طريق العشق المدجج بالرغبة ، لم تلهث حتى اللحظة خلف خفقات القلب الوله ، لم تعرف كيف يمكن للأيدي أن تعتصر الخصر أثناء العناق .!

لاتزال بكرا ، النهد المتدلي في خشوع لم يدرك معنى أن ترتعش الأطراف عندما تلمسه اليد ، وإن ندت عنها آهة مكتومة عندما تلمس صدرها فهي ليست من اللذة بل من الفقر المتقوقع داخل جدران البؤس والمتجرد من معطف البرد ، ربما سمعت كثيراً حكايات وأقاصيص عشاق ، لكن الأمر لا يتعدى السمع !

دخلت دارهم ، تجر ذيل ثوبها خلفها ، تدرك عين العارف أنها تخطت السبعين، لكن صاحبة السبعين ، مازالت تتلفح بألوان الطيف فوق الوجنات وحول العينين ، وان انحسر غطاء الرأس للخلف بعض الشيء ، فلون الحناء يجلل مفرق الرأس ، أما الأسنان ، فقد ضاقت ذرعاً بالكلمات الجوفاء التي لا تجد من يرد عليها فتساقطت واستعاضت هي عنها بأخرى ذهبية ، تشكل مع الأساور الذهبية التي تتراقص من عند رسغ اليد الى ما قبل الكوع منظومة اغراء تجذب العيون رغماً عنها .

زلزال اجتاح المنزل وأجبر الجدران الرخوة على التراقص ، استقدم أهل البيت مشروبا ساقعاً من البقال ترحيباً بمقدمها ، فرك الأب يديه وهو ينتظر حديثها الذي جاء بها اليهم ، اهتز كيانه رهبة من مقدم صاحبة العصمة والجاه ، ذات السبعين . عندما أسرت في أذن الزوجة بما جاءت من أجله انفرجت أسارير الأم في بلهٍ وذهول ، مالت على الأب وهمست في أذنه ، اقترب أكثر ليسمع في وضوح ما قالت ، انتفض مهزوماً بينما انبلجت عيان ذات السبعين وتراقص ما فوق حاجبيها .

استدعوها من الداخل ، الفتاه الصغيرة تلعب مع بنات الجيران في الحوش ، لم تلب الدعوة ، لا تزال تنتظر دورها لنط الحبل ضاحكة ، لم تحفل بالنداءات المتتاليةِ ، صوت الأب أوقف ضجيج ضحكاتها ، أقبلت وبين يديها عروستها القطنية ذات الألوان ، ألقوا بعروستها بعيدا . أوقفوها أمام الضيفة التي أخرجت من حقيبتها قطعة شيكولاتة وأهدتها إياها ، ابتسمت الصغيرة بعد أن قلبتها بين يديها تتأمل ورقتها الذهبية ، لم تحلم أبدا أن تلمس يدها مثل هذا الكنز ، خبأتها بين طيات ملابسها قبل أن تطلب منها ذات السبعين أن تقف أمامها منتصبة وأن تدور حول نفسها .!

امتدت يد المرأة تعبث دزن خجل بأجزاء الجسد الأخضر ، فظهرت عروق زرقاء خضراء منفرة في ظهر يديها .

ارتاعت الفتاة في باديء الأمر ، لكنها امتثلت لما تفعله المرأة تحت وطأة نظرات الغيظ التي رمتها بها أمها ، عصرت بقسوة بعض الأجزاء بيدها ، تأملت كل جزء حتى كعب القدم ، الذي رأته خشناً فأوصت بعلاج ذي مفعول سريع .. وحذاء !

خلعوا على البنت أحد فساتين أمها عندما كانت في مثل عمرها ، أفضلها حالاً، تحاشوا أن يظهر الرتق الذي احتل مساحة ليست هينة من الثوب ، ساقوها ، الى المصطبة في حوش البيت ، وجدته جالساً ، منفوخ البطن والجيب ، أخذ يتفحص الفتاة الصغيرة ، ويمتص لعابه ، زايدوا على ثمنها ، انتهوا الى تحديد القيمة المطلوبة فيها ، وكذلك تم تحديد نصيب كل من ذات السبعين وسمسرة الشريك القائم على انهاء الأوراق واجراءات الزواج !!!!

استمر النقاش ساعة كاملة ، كان كل طرف يسعى لكسب المزيد !

خرج الأب منكسراً ، قلبه عند موطيء قدميه ، لم يشيعها بدمعة ، سرقوها منه بمحض ارادته . جلس مستنداً بظهره الى حائط البيت ، اشعل سيجارة ، تفرس في وجوه بقية الأبناء ، وراح يتأمل حلقات الدخان السوداء المتصاعدة من سيجارته !



الذهب

حجرة صغيرة وأثاث بال ، أم عجوز وطفل رضيع ، زوجه تتوق في حماسة الى اتصال زوجها عندما تغفو العجوز ، زوج يترقب ، في الظلام تتقارب أقدامها ، تنفرج ، تتوالى الهمهمات ، يلفن وجهه في ثديها ، يطوق عنقها بنهم، يتلعان لهاث اللحظات السكرى ، تسعل العجوز ، يسارعان بالابتعاد ، يعطي كل منهما ظهره للآخر ، تتعالى دعوات الأم عقب السعال أن يعجل الله لها بالنهاية ، يخمد ومضيض الرغبة ..

تبتسم العجوز في خبث ، تلمح لمعان وجهيهما بعد حمام الصبح ، كعادتها تعاود عليه سرد حكايتها مع أبيه ، عشقه لها ، سعادتهما التي لم تكن تضاهيها سعادة في الدنيا بأسرها ، لم يصبهما الملل من تكرار الحكاية بعد كل حمام ، بل كانا يدفعانها أحيانا لتقص عليهما شيئا عن هذا ، قوة غريبة كانت تتملكها وهي تتحدث ، وميض جميل ينبعث من عينيها الضيقتين الغائرتين ، آهة تستعذب الذكرى وتطرب بها النفس ، يسبحان في دنياها التي تحكي عنها ، يتناسيان عشقهما ، تتقابل النظرات تتحاكى بالعشق رغم وجود الأم والطفل .

قبل أن تغادر الدنيا ، أخرجت كنزها ، عقدها الذهبي الجميل ، قبلته، وهبته هدية لهما ، قالت إنه هدية زوجها يوم ولادة ابنها ، هو أغلى شئ

تمتلكه ، رداه إليها داعين لها بطول العمر ، صممت ، قبلا هديتها ، أعطتهما حرية التصرف فيه ، بعدها أصبح العقد ذكرى للزمن الجميل ، لم يفكرا في التفريط فيه يوماً .

****

لم يجدا مفرا أمام الحاجه الماسة ، حملاه بين يديهما كأنهما ذاهبان ليواريا ابنهما التراب ، حزين وهي أشد حزنا ، ينظران إليه وتسبح العيون في الدمع ، لم تعد هناك وسيلة آخرى ، ظل فترة طويلة لايجرؤ على الذهاب بمفرده ، وهي بدورها كانت ترفض ، بعد تردد يمضيان بخطوات متثاقلة وصمت .. يدخلان .. يجلسان .. ينتظران .. يبتسم الصائغ وهو ينظر إليهما ، يخرج العقد من جيبه ملفوفاً ويقدمه إليه ، يضع نظارته فوق عينه ، لا يستغرق وقتا طويلا في الفحص، يدفعه إليهما بعد أن ذهبت ابتسامته ، لا يصدقان ، ينهرهما ، يعاودان الكرة عند صائغ آخر ، الجميع أجمعوا على إنه ليس .. ذهباً ...

كلاب الباشا

لزم الصمت ، جلس فوق دكته المتهالكة ، شبك أصابع يديه واستند بهم الى عصاته ، حاول أن ينصت الى حديثهم ، دارت رأسه بأفكار غريبة ، هناك طرقاً عديدة للمقاومة ، تناوبوا أمامه طرح الأراء والأفكار، استطاع أحدهم بفكرة جبانة أن يسلخه عن صمته . في العقد الثلاثين من العمر هو ، يشهد له الجميع بقوته وشدة تحمله ، يداه عفيتان ناشفتان من العمل في الأرض من قبل الشروق وحتى الغروب ، ثوبه القديم ممزق من عند كتفيه بسبب بروز عضلات كتفيه ، أطاح بالسكون الجاثم على صدورهم والخوف الصامت داخلهم ، أمسك بعصاه التي تفوقه طولا ، أقسم بأغلظ الأيمان أنه سيهجم عليهم وسيقتلهم واحداً واحدا ، أخذ يستعرض أمامهم خطته ، أنصت الجميع ، وزع الأدوار عليهم ، لم ينس كلاب الحراسة المسعورة ، لم ينس عدد الحراس والخدم ، كانت كلماته ثائرة ومقنعة ، آثار الجوع الظاهر والباطن كانت كفيلة بانتزاع موافقتهم الفورية .

كان غريباً عن البلدة ، جاء واشترى الأرض من ملاكها ، توقف عن زراعتها عاماً كاملاً حتى باع كل الأجراء أثاث بيوتهم ليأكلوا ، عندما استدعاهم للعمل في زراعتها حدد لهم أجراً أقل من سابقه ووافقوا ،

خفض الأجور مرة أخرى بعد موسم واحد ورضخوا ، أرهقهم بالعمل طوال اليوم الى ما بعد العشاء ، خفض الأجور ثالثة ، شكوا اليه من عدم وفاء الأجر بلقمة العيال ، سبهم ، ضربهم بالسياط .

أمر خدمه وحراسه الغرباء أيضاً بضربهم ، أوسعوهم ضربا ، هربوا هم أمام لسعات السياط ، عادوا الى أرضه في اليوم التالي مقهورين ، بعضهم هرب للعمل في أماكن بعيدة ، من بقي تحمل المشاق والآلام في سبيل لقمة العيش .

اجتمعوا على حلم ثورة في الغد يقاتلونه فيها بالفؤوس والعصي ، بالهروات والسيوف الصدئة ، بالبنادق البالية والمسدسات الكاذبة التي يحتفظون بها ، أجمعوا على صواب رأيه . النساء اللاتي كن يسترقن السمع ابتهجن وتخوفن في آن واحد ، يعرفن مثلهم مرارة القهر ، حتى روث البهائم الذي يصنعن منه الوقود منع رجاله الأقوياء جمعه من داخل حظائر بهائمه ، بقايا عيدان الذرة الشامية وحطب القطن لم يجدوا فيه نصيباً رغم شقائهن في حصاده ، جمعه خدمه وحراسه واضرموا فيه النيران أمام أعينهن ، يتخوفن من شتاء قادم لا تصمد فيه عظام رجالهم المتهالكة .

رفع رأسه بعد صمت ، أخذ يدق بعصاه الأرض ، صمتوا جميعاً ، عزفت عصاته بطرقاتها فوق الأرض سيمفونية مستنفرة ، توقف الطرق

فجأة ، اشرأبت الأعناق ، رفع هو رأسه للسماء ، كان القمر بدرا ، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، نظر اليه وهو يقترب منهم ، خشي أن يثبط عزائم رجاله ، لكنه اقترب أكثر وقال له وهو يرفع عصاه ويلكزه بها في كتفه برفق :

– جدورنا في ٱلأرض دي .. في التربة دية .. ولسه ما اتخلقش إللي يحركنا منها .. واذا كان معاه فلوس ومعاه رجال ، إن شا لله معاه جن ازرق حتى .. احنا معانا ربنا .. بس ربنا ادانا العقل نفكر بيه .. لازم نعرف احنا هانعمل ايه بالظبط قبل ما نخطي خطوة .. ثم التفت الى الرجال وقال لهم :

– مين يا ولاد معاه بندقية ؟

قبل أن يجيبه أي منهم عاود للحديث :

– أنا عارف مين معاه ومين ما معهش .. لكن بنادقنا قديمة .. والسيوف قديمة .. السيوف صدت من الركنة .. ده غير ان زمنا ماعادش زمن سيوف ولا زمن بنادق خرطوش لو ضربتها يمكن تفرقع ماسورتها في وشك ، لا يا أولاد ..

صمت ، ثم نظر الى القمر البدر وكأنه يستجدي منه شيئاً .. بادره أحدهم

– يعني عايزنا نركع ونفضل عبيد للباشا ..؟؟

إعتدل رجل مسن ثيابه أكبر سناً منه مستجدياً من عصاته مساعدته في النهوض ، وافقته العصى بينما خذلته ذراعه الهرمة ، إمتد أكثر من ذراع لمساعدته ، نهض ، نفض مؤخرة جلبابه ، تناثر تراب ، لم يتأفف أحد ، استند على عصاه قائلا :

– اسمعوا ياولاد كلام عبد الباسط ... هو أوعى منكم وأكبر منكم .. وحافظ كتير من كلام ربنا .. لكن فيه حاجة عايز أقولها لكم .. الباشا النهارده غير الباشا زمان .. الباشا زمان كان مسلم زينا .. عارف زكاة المال وزكاة الفطر وزكاة الأرض ، الواحد مننا كان ما يملكش قعر قصبة في الأرض لكن كان بياكل وبيشرب من خيره أحلى أكل وأحلى شرب .. كنا شغالين عنده لكن يحامي عننا كأننا ولاده أو اخواته .. حتى حراس أرضه وخفره كانوا مننا .. عيدان الدرة وحطب القطن وروث البهايم كانت ملكنا ناخد منها وقت مااحنا عايزين ..

– يا عم روقنا .. ما الباشا بتاع زمان هو هو الباشا بتاع النهاردة ... غيرش احنا بس اللي مكتوب على جبينا نفضل طول عمرنا عبيد .. والله حرام .. قاطعه ليتم حديثه ...

– يا ابني أنا قلت اسمعوا كلام عمكم عبد الباسط .. ربنا يطرح فيكم البركة .. صدقوني .. الباشا بتاع النهارده مش مسلم .. ما يعرفش إيه يعني الزكا ولا الصدقة .. حتى حراسه جايبهم من بره البلد ..

ومسلحهم بسلاح أحنـبي .. دي البندقيـة الواحـدة تطلـع سـته وتلاتـين طلقة قبل ما ترمش بعينك ... يعني لو طلعنا كلنا بالسـلاح اللـي حيلتنـا بندقية واحدة آلي في ايد راجـل مـن رجالتـه تخـرم جتتنـا زي الغربـال .. وربنا بيقول ولا تلقوا بأيديكم إلي التهلكة . عموماً أنا قلت اللي قدرنـي عليه ربنا .. وأنتم دماغكم في راسكم تعرفوا خلاصكم ، واوعوا تفكروا ان أنا خايف ، أنا عمري ما هعيش قد اللي عشته ، أنـا مسـتعد اضحـي بنفسي قبليكم ، ولولا خايف من ربنا كنـت أرمـى نفسـي قـدام عربيتـه تدوسـني .. تموتـني عشـان أوديـه في داهيـة .. لكـن المصيبـة إن المـأمور هايبعت واحد ظابط يعاين الحادثة على ما هوه ياكل دكر البـط في بيـت الباشا ويطلعه بريء وما عندهوش ذنب ، وأنا ما ينوبني غير لوعـة عيـالي وشويتي في نار جهنم .!!

لم يستسلموا لنصائحه ، تعالت الهمهمات من الصفـوف الأولى بينمـا حديث خافت يدور في الصفوف الخلفية ، بعضهم يشكو لبعضهم حزنه، كلهم في الهم سواء ، الشتاء قادم ، لا يوجد منزل واحد في القرية بـه مـا يكفـل لـه دفء الأجسـاد أو البطـون ، جفـت ضـروع المـاعز والأغنـام والأبقار والجاموس ، سكنت حركة الحمير، ظهـرت عظامهـا ، تركوهـا تسرح على الطريق علها تجد حلفايـة تسـد رمقهـا ، ينالهـا كـل يـوم مـا يكفي من الضرب والأذى من حراس القصر والأرض عندما تقترب منها،

كلاب الباشا تعدو خلفها ، الحمير لا تستطيع الدفـاع ، بطونهـا الخاويـة وعظامها النخرة لا تساعدها على الرفس بـالخلفيتين ، ذات مـرة تشـجع أحد الحمير وتفجر خوفه ورعبه فتقلصت أمعائه الخاوية ومنحت مؤخرته قوة مؤقتة استدار بها وحاول أن يقول لأحد الكلاب أنه حمـار جـدع ، رفسه بخلفيته ، لكن قوته خذلته ، وقع على الأرض ، تدحرج نحو الترعـة الصـغيرة ، تجمعـت بقيـة كـلاب الحراسـة وغرسـت أنيابهـا فـي جسـده المطحون ، استسلم للموت ، تناثرت اشـلاؤه ، وتحركـت أطرافـه بفتـور حركتها الأخيرة واستسلم للرقاد . بكاه صاحبه ، ورثاه أولاده ، غـير أن نفس صاحبه قد استراحت بموته ، فكم من مرة عرضه للبيع ليطعم أولاده من ثمنه فلم يجد له مشتر ، بكـوه وهـم يشـعرون أن نهـايتهم لـن تكـون أفضل حالا من نهايتـه . كلابهـم أيضـاً لم تجـد بـالأمس الـفتات الـذى تفـتات به فثارت علـى بعضهـا .. هـاجمت بعضهـا .. عقـرت بعضهـا ، سالت دماؤها وهي رفاق درب وطريق وجوع ، وعندما انتبهت الى آثار الدماء ، خف عواؤها ، جلس كل منهم على مؤخرته ، نظـرت لبعضهـا فى عتاب بعيون دامعة وأفواه مفتوحة من شدة الجوع والإرهاق ، نظرت لأكبرها سناً وهـو ملقـى علـى الأرض يلحـس آثـار الدمـاء فـى قدمـه ، أحسـت بـالألم والحسـرة ، أحسـت بمـا ارتكبتـه مـن خطـأ .. وضـعـت رؤسهـا في الأرض حزناً مـن فعلتها .. لقد نهشت لحم بعضها .. اقـترب

كل منهم بدوره إلي الكبير .. أصواتها المجلجة هامسة ضعيفة كمواء القطط الهاربة ، شرعت تتبادل معه الآراء ، استقرت على رأي واحد .. الهجوم .. الهجوم المباشر والمباغث على كلاب الباشا ، اعتذر كل منهم لزميله وأبدى أسفه وكل التمس العذر لصاحبه .. فجميعها الى مصير واحد ولو أبت .

تقدمت الكلاب في جوف الليل ، حاولت الوثوب فوق الأسوار ، خذلتها قوتها ، لم تستطع ، شرعت في طريق آخر ، تناوبت حفر نفق بأظافرها تحت السور ، شعر الحراس بها ، حبسوا كلابهم في غرفة مغلقة حتى يوقعوها في الكمين ، ألقى حراس الباشا بقطع اللحم المغموسة في السم أمام النفق من الجهة المقابلة ثم ابتسموا في خبث ، لمعت عيونهم في الظلام وابتعدوا ، غزت رائحة اللحم أنوف كلاب القرية المسكينة ، أسرعت من جديد ، لم تكل أيديها ، اخترقت عبر الجدران ، بحذر تقدمت ، هجمت بلا تريث على قطع اللحم المسمومة ، إنطلق عواؤها الحزين ، ذهبت وذهبت أصواتها ...

الكلاب صنعت نفقا تحت السور العظيم ، الكلاب اخترقت الحاجز ، الكلاب استطاعت .. لكنها فشلت بسبب المؤامرة ، الأفواه تناقلت حكاية عملية الكلاب ، تواردت الخواطر والآراء .

لم يمض غير يومين ، أحد الرجال الذين سمعوا حكاية الكلاب تجاسر كسر حاجز الخوف داخله ، قرر أن يسرق من مخازن الباشا قوت أبنائه بمفرده ، حمل سلاحه القديم وإستل سكيناً صدئة وضعهما بين طيات ثيابه ، أمسك نبوته الطويل الذي صنع لنهايته حلقة حديدية ، تقدم والعيون غافية ، الصمت مطبق على جنبات القرية الصغيرة ، فتوات كلاب القرية لم يعد يسمع لها صوت ، أشبال صغيرة تلك التي لم يكن لها نصيب المشاركة في الهجوم ، أصواتها مبهمة تصل لمسامعه في الغالب إستجداء لطعام قد يسوقه أحدهم اليها ! يعرف هو الطريق إلي المخزن الكبير ، المخزن يمتلئ عن آخره بالقمح وبالذرة الشامية وبالدقيق ، كل ما تبغيه نفوسهم التي ترجو الحياة ، تسلل في حذر ، إقترب من الترعة الفاصلة ، غابت رائحة المساء الندية لتحل رائحة الترعة العفنة من جثث الكلاب التي ألقيت فيها ، وهبت له الرائحة القذرة القوة والعزيمة ، رفع جلبابه، خاض الترعة مستعيناً بعصاه ، اصطدم بجثة كلب تطفو ، أزاحها بعيداً ، وصل للجانب الآخر ، الى مبتغاه .

استطاع تخطى السور ، الثمار الناضجة المتدلية من فروع الأشجار تكاد تخطف لبه ، امتدت يده الى برتقالة ، قضمها بقشرها ، أحس بدبيب الدماء في عروقه ، أحس صوته وهو يلوك البرتقالة يصل الى كل الأسماع ، اكتفى بمصها وتفلها وتناول أخرى ، اتجه في حذر بالغ ناحية

المخزن الكبير ، دفع الباب ، انفرج محدثاً صوتاً غليظاً ، دق قلبه بعنف ، التصق بالجدار ، جاءه صوت من الداخل يسأل : مـين هنـاك ؟ لم يعـاود الصوت النداء ، يبدو أنـه صـوت نـائم عـاد الى نومـه ، تقـدم للداخـل ، امتدت يده في الظلام تتحسـس أحـد الأكيـاس ، وجـده ناعمـا رخـواً ، تـأكد أنـه دقيـق ، كـاد يرقـص ، الكيـس يـزن مـــا يقــارب الخمســين كيلواجرام، حملـه فـوق ظهـره واستـدار ، خطـوات معـدودات ، انفـرج الباب عن أحد الحراس بيده فانوسه .. صـاح بـه : لا تتحـرك .! ألقـي بالكيس ، أسرع ناحيته شاهراً عصايه ، ضربه بقـوة ، صـرخ ، صرختـه هزت أرجاء القصر ، ماكاد يعدو خارجاً الا وانطلق جحيم من الأعـيرة النارية حوله ، نام فوق الأرض مقهوراً ، تقدمـوا بفوانيسـهم ووجوههـم الغريبة ، قام زميلهم الملطـخ بالدمـاء ، سـقطت الأضـواء فـوق وجهـه ، برزت أنيابه ، امتدت يده إليه ، أوقفه من نومته ، صنعـوا دائـرة حولـه ، كلابهم خلفهــم صنعـت دائـرة أكـبر ، طـالبهم أن يـتركوه لـه ، أذعنـوا لمطلبه، كال له الضربات الموجعة ، تألم ، اندفـع الـدم مـن فمـه بغـزارة ، صوت القهر يخـرج مكتومـاً مستنجداً ومـا مـن مجيـب ، علقـه في أحـد الأشجار ، حمد الله في سريرته ، ظنه سيصنع له مشنقه ينتهي بها عذابه، . لم يفعل ، رفعه من قدميه ، لم يجد فيه مقاومه تذكر ، لم يجد في ملابســه

ما يتطلب القوة والعنف ، بمجرد أن شدت أجزاؤها تناثرت وظهر جسده اليابس وأصبح تعداد ضلوعه ميسوراً لمن يريد التعداد .

بعود خيزران دقيق أخذ يداعب جسده ، ضربات خفيفة ما لبثت أن اشتدت لتترك أثرها الطولية والعرضية على لحمه المكشوف ، تعالت ضحكاتهم مع صرخاته تتوارد ، قطع الحارس الحبل بسكينه ، سقط دون حراك ، تركوه وانصرفوا حتى الصباح ، حاول الحركة لم يستطع ، أبى أي جزء من جسده الحركة ، تحركت أهداب عينيه ، فتح عينه فسقط ضوء الشمس فوقها ، أغمضها ثانية ، لزوجة الدم فوق وجهه وجسده جمعت فوقها أسراب الذباب والحشرات ، حرقته لسعاتها لكنه لا يستطيع الحركة ، تحرك غصن شجرة فحال بين الشمس وعينيه ، فتح عينيه فلم ير شيئاً ، حاول ، باءت محاولاته بالفشل ، استشعروا حركته ، تقدموا نحوه يضحكون ، ألقوا بالماء فوقه ، اهتز و لم يستطع النهوض ، أوقفوه عنوة .

تقدم نحوه فوق فرسه الأبيض المهيب ، نظر اليه ثم الى حراسه وتحدث إليهم، لم يفهم من كلامه كلمة واحدة ، استجاب حراسه لحديثه ، تحدثوا إليه ، اقترب منه ، لم يتحمل فرسه المهيب منظر ذلك الآدمي الساجد ، صهل بقوة ورفع قائمتيه الأماميتين عالياً ، بصق نحوه ، ألقي راكبه بتعليماته إليهم قبل أن يمضى للتريض كعادته كل صباح .

أوثقوا يديه خلف ظهره وأركبوه بـالمنـدار حمـاراً نحيـلاً ، أعـور أعـرج ، وجهة للخلف ، أوثقوه جيداً فوق الحمار ، انطلقـت رصاصـاتهم توقـظ صباح القرية البائسة ، هب الناس من نومهم ، بعضه كان في طريقه منـذ قبيل الفجر الى الترعة حـاملين شبـاكهم المصنوعـة مـن أثمـالهم الباليـة أو حاملين مصفاة من السلك ، يصطـادون بهـا الأسمـاك الصغيـرة فـي طـور نموها الأول، وربما جادت الدنيا علـى احلهـم بواحـدة كبيرة ، لابـد أن الأسماك ستتجمع حول جيف الكلاب ومن حولها هم يصطادون ، وقبـل أن يغزو نورالشمس الأرض سوف يسارعون بالعودة قبل أن يفطن اليهـم حراس القصر وزبانيته .

توقف الجميع أمام دورهم مقهورين .. يمضي الركـب بالسارق الذي لم يكن يعي كثيراً مما يدور حوله ، دماؤه فـوق جبهتـه وعظامـه البـارزة المكسورة تستجير ، القلوب تتحرك بعنف في مواقعهـا ، تتحـرك الأنـامل يكبتها الجوع والقهر ، تصرخ زوجته ، تقترب ، تلقي بهـا يـد الحـراس بعيداً في سخرية ، تهيل التراب فـوق رأسـها ، خطـوات معـدودة خلـف الحمـار الأعـور الأعـرج وتسـقط أعيـاءاً فـوق الأرض ، تتجمـع النسـوة حولهـا، تهبـط الدمـوع قسـراً مـن أعينهـن ، يشـاركنها حزنهـا ، تعـض النواحذ ، تهتف السواكن الظاهرة ، تتأرجح العصـا في أيـدي الرحـال ، يبكـون في صمـت ، هـل يهجمـون ؟! يتسـائلون بعين وتعـزف العـين

الأخرى عن الأجابة ، يترقب الجميع وميض ثورة من الكبار ، الكبار بعيونهم المرهقة لا يجدون الكلمات ، الضحكات تخرج من أفواه الحراس تعقبها طلقات الرصاص في الفضاء ، يرجم الأطفال الحراس بالحصى والحجارة الصغيرة، من يقترب أكثر سوف تناله صفعة قد تلقي به على الأرض ، الكلاب لم تشارك في هذا العرس ، فتعدادها أصبح قليلاً جيداً بعد العملية الأخيرة .

صوت قدوم سيارة الشرطة يشق الأرجاء ، نفيرها المرعب يكاد يصعقهم ، لم يبادر أي منهم بالحركة ، حتى الأطفال جلسوا بدورهم خوفاً ورعباً ، سيارتان محملتان بالجنود ، هبطوا شاهرين أسلحتهم ، دخلوا البيوت ، قلبوا ظاهرها وباطنها ، لم يجدوا شيئاً ، وقف هو بعوده الممشوق ولباسه الذهبي تحيطه الرهبة ، كلّ يتقدم ناحيته يلقي عليه التحية ويعود الى مكانه ، نظر الى أجسادهم النحيلة ، وجوه الأطفال وأيديهم التي تحارب جيوش الذباب الذي يخفي معالم وجوههم ، هبط من فوق حصانه الأبيض القوي ، همس بكلمات ، أومأ الضابط الشاب برأسه مستجيباً ، مضى وخلفه حرسه المدججين بالسلاح ، تحرك عبد الباسط بعجز ظاهر ، تحرك الرجل الطاعن في السن صوب الضابط ، اتخذ من عصاته معيناً ، توقف الجميع على مسافة ، رنت عيونهم ، قلوبهم تتحرك على وقع خطواته ، أمام الضابط توقف . بادره الضابط :

– من أنت .. ؟

– خدامك عبد الباسط .

– عايز إيه .. ؟

– الراجل الغلبان ده يا سعادة البيه ..

– ده مش شغلك ... ده حرامي ولازم يأخذ جزاءه .

– زى ما أنت شايف يا سعادة البيه ... أكبر بيت في بلدنا يقدر كلب عفي ينطه .. كسرة العيش اليابسة ..

– أنت حتحكي لي قصة حياتك ..

– ياسعادة البيه ..

– يعني يسرق ويشيل سلاح مش مرخص ...

– ياسعادة البيه الحكايه مش حكاية سلاح ، الناس الفقر واكلها .. مفيش شغل .. الباشا منع الأولاد من الشغل عنده ... وأحسن واحد فينا ما يملكش خمس قراريط أرض .. والشغله الوحيدة اللي نعرفها هي الزراعة ..

يتحدث العجوز بلغته الدارجة ، كلماته تخرج ممزوجه بالأسى ، تتقطع نبراته ويسترد أنفاسه من جديد ليعاود بالحديث ، يتفرس الضابط الوجوه ، يهتز داخله ، آثار الفقر والمرض تبدو جلية ، عواطفه تحركت معهم ، لكن ماذا يمكن أن يفعل لهم ؟ يسرد العجوز حكاية الباشا

معهم: كيف استقدم مزارعين مــن خـارج بلدتهـم ، ادعـى أنهـم خـبراء وأنهم أفضل منهم ، استقدم الآت ومعدات كثيرة مش محتاجة آكـتر مـن نفرين يشغلوها ، طب والباقي ياكلوا منين ، ايوه احنا عارفين ان الأرض أرضه .. لكن ...!. يصمت العجوز ويفكر الضابط وينظر حوله ، مـاذا يستطيع أن يقدم لهم ؟ لا يستطيع فعل شئ ، الفتيات بوجوههن البرونزية الملفوحة بحرارة الشمس يسـترقن النظـرات ، النسـاء متشـحات بالسـواد ينظرن بدورهن من بين أطـلال منـازل أو مـن بـين السـطوح المتهالكـة ، الخوف يتملك الجميع ، الصمت يقتلهم . قطعــت هـي حبـل الصمــت ، اخترقت الصفوف ، جثت عنـد قدميـه ، قبلتهمـا ، أسـرع الجنـدي مـن خلفه ليسحبها بقوة وعنف ، ويلقى بها للخلف ، نهره ، أسرع الجنـدي خلفـه ثانيـة ، حـاول الضـابط تهدئتهـا ، طالبهـا عبـد الباسـط العجــوز بالصمت ، مسحت دموعها بكم جلبابها المهترئ الأجزاء ، جلست على الأرض ، أخذت تندب حظها وحظ زوجها العاثر ، ألقـت بالأسـباب ، استجارت به أن يرفع الظلم ، أخذت تدعـو لـه وتكيـل الثنـاء ، مرغـت رأسها في التراب بين قدميه ، أفـاق مـن نشـوة السـلطة علـى قـرع طبـل الإنسان داخله ، مال عليها امتدت يده تساعدها على النهوض ، امتـدت يده الثانية لجيب سترته العسكرية ، أخرج بين أنامله مـا يمـتلكه قـابضاً عليه بحيث لا يظهر مـن بـين أصابعـه ، حـاول أن يـدس النقـود في يدهـا

عنوة، تصلبت أناملها ، لم تفتح راحة يدها ، قبلت ظهر يده ، سحب يده ثانية ، لم تفلح محاولته في وهبها النقود ، لم يجد مفراً ، أودع نقوده جيب سترته من جديد ، وعدها خيراً ، أحس بقشعريرة تأخذ جسده / مضى علي قدميه ومن خلفه العسكر ، اخترق الدروب الضيقة القذرة ، القذارة تملأ الطريق ، البؤس والشقاء واضح على الأقدام العارية ذات الشقوق السوداء ، عبر الجسر الأسمنتي المؤدي لأراضي الباشا ، جثث الكلاب المتعفنة تطفو فوق مياه الترعة الآسنة ، زكمت الرائحة أنفه ، أسرع بالمضى ، انفرجت الدنيا عن إبتسامة عريضة ، استقبله بجبور ووجهه الباش الذي يعلو رقبة اكتنزت بالدهن والشحم وصنعت مع جسمه قطعة واحدة ، الأزهار وأريجها يغرقان الطريق من أول الباب الخارجي ، كلاب الحراسة ضخمة موفورة الصحة والعافية ، الحديقة غناء تتأرجح الثمار فوق غصونها ، طيور الزينة في أقفاصها الذهبية تصدح بالغناء ، خدم في ثياب زرقاء محلاة بخطوط ذهبية ، داخله يكاد ينفجر ، الرجل يتحدث إليه بعربية ذات لكنة أجنبية ، لا يمتلك سوى الإصغاء ، لا تسمع أذناه سوى صرخات بؤس وشقاء ، لا ترى عيناه سوى الترعة ، الفاصل بين الجوع والفقر والنعيم المقيم .. العرايا الحفاة ، الحق .. العدل .. المساواة .. أحس أنها كلمات جوفاء ،كان جديداً على المنطقة ، درجات معدودات على السلم الخارجي وضمه القصر

المنيف بين جوانبه ، اللوحات فوق الجدران تعكس وله وجنون صاحبها بالأبهة، فازات ضخمة تتجاوز الرجل الواقف طولاً ، أباريق نحاسية محلاة بنقوش فرعونية ، آنيات فخارية قديمة ، تماثيل فرعونية ومنمنمات إسلامية مصاغة بدقة، زجاج البهو الكبير ذو الألوان المتباينة ينفذ أشعة الشمس فتتأرجح الجدران بين الألوان .. نباتات خضراء معلقة ، نباتات ظل . في حجرة المكتب الضخمة التي امتلأت جنباتها ورفوفها بأمهات الكتب جلس هو خلف المكتب الضخم بجواره كلبه منفوش الشعر ، أخذ يتحدث عن واقعة الأمس والفلاح القذر الذي ضرب أحد حراسه وعن محاولته السرقة ، يتحدث وهو يداعب كلبه بيده ، كلبه يلحس يده ، بجواره من الجهة الثانية وعن يمين الضابط تمثال يقترب من المتر طولا ، صوره مصغرة من تمثال الحرية ، نظر الضابط الشاب إلى التمثال ، أشاد بجمال صنعه ، تطرقا الى الحديث عن الحرية ، انفرجت أسارير المضيف ، أشعل سيجاراً هافاني الصنع بعد قضم مؤخرته ، ترك كلبه المدلل يصعد فوق ركبتيه وهو يشدو بأحاديث عن الحرية ، وما هي شروط الحرية ، فالحرية والجهل لايتوافقان ، وفي وجود الجهل لابد من سلطة قوية ، فالجاهل بطبيعته لا يفهم مغزى الحرية ، كانت دهشة الضابط بالغة عندما وجده يتهم الإسلام بانه حكم ديكتاتوري ، وذهب يستدل على صدق كلماته بمقولات مأثورة لعلماء بارزين ، أحس بالتأفف من

أفكاره، استطاع أن ينهي الحديث بلباقة ، حاول أن يقنعه بتناول الغذاء لكنه أبى بشدة ، شكره ، أمر الجنود أن يأخذوا المتهم ، كانت مفاجأة تنتظره خارج القصر ، وجد أن إحدى السيارتين قد امتلأت عن آخرها بصناديق الفاكهة المختلفة ، سأل جنوده ، أجابوا بأن الباشا أمرهم بهذا، أومأ الباشا برأسه مبتسماً ، حاول أن يقدم له أسباباً واهية ، اغتصب الضابط ابتسامة صفراء ، أمر الجنود بإنزال كل ما في السيارة ، أطاعوا الأوامر ، أخذوا المتهم .. قبل أن يمضي في الطريقه عرج على القرية ، شد في طريقه على يد العجوز ، وعده أن يفعل ما في وسعه حتى يفك أسر السارق ، استشعر غصة في حلقه ، حاول أن يمد يد المساعدة للعجوز فأبى .

أسبوع مضى ، استرد في السجن عافيته ، أكل وشرب ما يكفي ، تمنى أن يظل مسجوناً ، مع كل مضغة أو شربة ماء يتذكر أسرته ، تنزوي أمنيته السعيدة ويطرق البؤس ملامح وجهه ، لم يتعرضوا له بأي أذى ، كانوا معه رفقاء ، عقد الضابط صلحاً بينهم بموجبه يفك أسر السارق ، وتعهد عليه وعلى عجوزهم بعدم التعرض للباشا أو حراسه أو كلابه ، أذعنوا لما يحمله المكتوب ، مهر كل منهم المحضر بإبهامه .

انطلقت زغاريد كاذبة ، دموع في العيون ، قيود جديدة فرضت ، هذه المرة ليست من قبل الباشا ، ولكنها قيود من السلطة أيضاً ..

أحس الحراس بمدى سطوة الباشا ، ليس بما يمتلكونه من سلاح لحمايته ، ان بمقدوره أن يلقي بكل الفلاحين إلى السجن ، كان إتفاقه مع السلطة فتحاً من فتوحاته ، صالوا وجالوا أكثر من ذي قبل . على الطرف الثاني فريق أثقلته الأغلال وأقعدهم الفقر ، أصبحوا مثل ديدان الأرض لا يدركون الطريق ..

مع غروب شمس النهار استجارت فتاة ، صرخت بأعلى صوتها ، اهتزت جدران المنازل الطينية ، انطلق كل يلهث بسرواله ، بنبوته ، بمنجلته ، بفأسه ، أسرعوا ، أسرع الحارس ، قفز فوق السور ، رفع بندقيته الآلية من ورائه ، صوبها تجاه القادمين ، ساعدوا الفتاة على النهوض من الترعة ، كانت تحاول اصطياد قليل من السمك بثوبها ، حاول الحارس أن يهبها بعض الثمار ، رفضت، حاول مداعبتها ، أقصته، هاجمها ، صرخت . وقفوا جميعاً شاهرين أسلحتهم .. أطلق الحارس سيلاً من الأعيرة فوق رؤوسهم ، ظلوا واقفين وكأنهم يتمنون الموت ، انسحب للداخل ، أخذوا الفتاة الى القرية ، طالبهم العجوز بتركها والعودة الى بيوتهم ، انفرد العجوز بالفتاة ، حمد لله أن لم يصبها مكروه، عنفها وألقى عليها باللوم ..

صلى بهم العشاء ، استدعى بعضهم ، كانوا شباباً لم يتجاوز أحد منهم الأربعين ، همس في أذانهم بكلمات ، وهبهم بعض الأوراق المالية

التي لو احتفظ بها فستكفيه يوم مماته ، أعطاهم بعض الحلى الذهبية والفضية التي كان يحتفظ بها ليوم حاجة ، شرح لهم طريقة الوصول ، انطلقوا ..

قبل تباشير الفجر ، عادوا ..

انفرد بهم في مكان قصي ، أخذ عوداً صغيراً من حطب القطن ، راح يرسم لهم فوق التراب حدود الأرض الجديدة التي سوف يعمروها ، سألهم عن كل جزء وكل قطعة رأوها وبأي نوع يمكن زراعتها ..

حبيبات صغيرة مثل حبيبات الذرة الرفيعة داخل كيس صغير لكل منهم ، حدد لهم الليلة الموعودة ، اتفقوا فيما بينهم ، حال بينهم وبين الخوف ، أخذ يشرح لهم طريقة بذر البذور ، المساحة التي يجب عليهم تغطيتها ، والموعد ليلة العيد ، أكد لهم أن أعوان الباشا لن يدركوا ما هذه البذور ، الأرض أرضنا ولن نبوح بالسر لهم ، أعوان الباشا غرباء استقطبهم من أماكن بعيدة ، منهم من لايدرك حتى اللغة العربية .

أسابيع قليلة ودوت أصوات سيارات الشرطة ، نفيرها أيقظ الحراس ، لم تكن سيارة واحدة ، بل عدة سيارات ، هبط الجنود مدججين بالسلاح ، حول قطعة الأرض ، إلتقوا ..

صنعوا سياجاً ، تأكدت القوة القادمة من نوع النبات الصغير الجديد، لكنهم إقتادوه هو وصحبه ، فرضت الحراسة على الأرض .

تشابكت خيوط قضيته ، التهم كانت جاهزة : حيازة آثار وتهريبها للخارج ، التهرب من الضرائب ، استزراع أرضه بمواد مخدره ...

لاتزال القضية أمام القضاء وتحت رحمة القانون ..

المهمة

مضى في الدروب الضيقة ، بين عواء كلاب الحراسة ووسوسة الهوام ونقيق الضفادع ونسمات المساء الرطبة الندية ، وصل للطرف الآخر من القرية ، صفحه مياه الترعة تتلألأ فوقها صور النجوم . لم يحظ الجمال الرباني المغلق على الدنيا من حوله بانتباهه ، انطلق في طريقه ، تحسس سلاحه ، أخذت جسده رعشة ، أجفل مما عزم عليه ؛ تذكر قسمه ، تذكر المهمة المكلف بها ، انساق في تيارهم ، وقع اختيارهم عليه ، هل يعود أدراجه ؟ كيف يعود ؟ ماذا سيقولون عليه ؟ مدوا أيديهم بالمساعدة له ، فكوا عسرته ، وهبوه من المال ما يفي حاجته ، خمس سنوات مضت منذ أنهى خدمته العسكرية ، سبع سنوات منذ حصوله على مؤهله ، لم يعمل ، أصبح عالة على أبيه وأسرته ، إنساق في ذكرياته ، كم تمنى أن يلتحق بعمل ، كم من الجهد بذله في سبيل الحصول على وظيفة بما يحمله من مؤهل ، كم تمنى أن يرفع عن أبيه ما أثقله من تكاليف الحياة، أقرانه ألحقوا بأعمال ، نظر إليهم ، ملأ الحقد قلبه ، كل من التحق بعمل له قريب ذو مركز مرموق ، أما هو فأهله لا حول لهم ولا قوة ، كان شغوفاً بالحياة ، محباً لأهله ، تواقاً للخير ، راكعاً شاكراً دائماً لله العلي القدير ، نصبوا شباكهم حوله بعناية ، لم ينسق في

تيارهم بهوادة ويسر ، حاوروه ، تشبث بالحق والخير، ساوموه ، لم تفلح مساوماتهم ، عقدوا مقارنات وكـانت الغلبة لـه، طرقـوا منـاح شـتى ، علموا ما أصابه ، أدركوا علته ، طرقـوا فـوق جرحـه الغـائر في نفسـه ، عرفوا حاجته الماسة للعمل ، فتحوا أبواب العمل أمامه ، استشـعر خوفـا وتوجس شرا ، رفض بادئ الأمر ، مضت أيام فيها عـزف عـن الجلـوس معهم ، ذهبوا إليه ، عرضوا عليه المال والعمل ، كانوا يعلمون أنـه حـاز كثيراً من شهادات التقدير في الرماية ، جلس كثـيراً الى نفسـه ، أحلقـت به الخطوب ، ذهب ليعمل في المحاجر ، لم يدم عمله كثيراً ، طـرق أبوابـاً كثيرة ، كل الأعمال ، لم يفلح ، كلل مسعاه بالفشل مرض أبيه الطويل، أرهقه ، أسهده ، الأبواب أغلقت دونه .

تتابعت الأحاديث ، الدولـة الإسـلامية ، الإمـارة ، الخلافـة ، الحـق ، الشورى ، العدل ، المساواة ، دسوا له السم في العسل : " ها هي راقصـة كم تتقاضى ؟ ها هـي فنانـه كـم تتقـاضى ؟ تجـار السـموم والمخـدرات كيف أصبحوا ؟ سارقو قوت الشعب أين هم ؟ أصحاب النفوذ اليوم من ؟ ... عقدوا مقارنات كثيرة بينه وبين أقرانه الذين يعملـون وهـو مـازال قابعاً في المنـزل ، لماذا ؟ حاول أن يئد الأفكار المفترسـة ، تمنـى أن يسـافر بعيداً ، كيف يسافر وأبوه طريح فراش ؟ الحاجة للمال قاهرة .

لم يصدق عينيه ، استطاعوا أن يحصلوا له على عمـل ، وجـد الجميع يفسحون لهم مكاناً ، يستحيون لطلباتهم ، إنه طريـق واحـد أمامـه ، لم يجد مفراً . استقر عزمهم عليه ، أناطوا به المهمة الأولى ، في مكان قصـي مضى معهم وبهم ، وجد السلاح ووجد المجندين على أهبـة الاستعداد ، أخذ يشرح لهم طريقة فك السلاح، طرق التصويب الصحيحة ،

أمام عينيه ، شريط طويل من ذكريات حافلة بأشياء غريبة ، حكاوي مريرة ، ظروف قاهرة ، آهات تتناوب وأحاسيس مُشبعة بكلمات حـق ، ظاهرها وباطنها العذاب ..

تحسس سـلاحه ثانيـة ، أخـذت جسـده قشـعريرة ، تـردد ، شـجعته كلماتهم ، دفعته أموالهم ، هزمته ظـروف الحيـاة القاسـية ، قهرتـه قـوى خفية دست بعناية في فكره ، تسلط ذوي النفوذ ، نفاق أصحاب الكلمة ، أحاسيس متباينة تخترقه ، اعلاناتهم المسـتفزة لفقـره وحاجتـه ، يـتريث بعض الشيء ، يتردد ، تدفعه أشياء كثيرة .. يصهل الجواد الجامح داخله ، يمسك لجام نفسه بقوة ، يمضي في الطريق قسراً عنه ، عبر مكبر الصوت يخترق جسده صوت المقرئ بآيات الله البينات ، سيمفونية السماء تعزف فترتعش أوصاله ، يتعلق الشيطان بأذنيه ، تنطلق المعزوفة وتخترق جـدران القلب ، كلمات تتوافد في توافق تذهب بالإنسان السوي للآفاق الرحبـة ، آفاق الإيمان والهدى الرباني . توقف على حافة الترعة الجاريـة ، أصـاخ

السمع ، هبطت دمعتان قسراً فوق وجنتيه الضامرتين حزناً ومرارة ، مضى في طريقه ، أُغلق طريق العودة ، الأفكار تتوارد والأسئلة تتوالد، ينظر للنجوم تارة ، يناجي ربه بكلمات ودعوات .. القتل .. يقتل إنساناً .. يحرمه من الحياة .. وما جزاء القتل ؟

لا مفر يجب أن يقتله ، إنها مهمته ، اتفقوا جميعاً وحددوا هويته الكافرة وأحلوا دمه ، ينشطر من جديد : " إنه انسان مسلم " .!

يعاود السير في الطريق المحدد ، تتباعد المسافة بينه وآيات الذكر الحكيم ، تظهر أضواء مركز الشرطة ، يتخذ طريقاً جانبياً ، في خطوات حثيثة متلصصة يمضي، يخرج سلاحه من طيات ملابسه ، يتقدم بخطى واهنة ، تتحرك أنامله حركة لاإردية ، انفرج الطريق أمامه إتخذ ساتراً يحميه من العيون ، يحميه من طلقات الرصاص في نفس الوقت ، أخذت عيناه ترصد الحركة ، الخفراء أمام مركز الشرطة يتناوبون شرب الشاى ، استطاعت عيناه أن تحدد ملامحهم جيداً ، فقراء مثله ، تطحنهم ظروف الحياة مثله ، لهم أبناء صغار في مدارس القرية ، هذا له فتاة في الغد زفافها ، ماذا يحدث لو سقط قتيلاً ؟ هذا الجندي الواقف بالباب تجاوز الخمسين ، كثيراً ما كان يؤمهم للصلاة ، يعرف الجميع ، سيبادلونه اطلاق الرصاص ، إهتز جسده بعنف ، عاد صوت المقرئ المغرد بآيات القرآن الكريم مخترقاً سكون الليل ومعاقل قلبه الواجفة ، ضاع صوت المقرئ

للحظة ، خرج جندي متسلط مشهود له بذلك ، استفزه ، عادت من جديد سيمفونية السماء ، هبط الودق فوق قلبه المهتزئ بالأفكار والأحاديث ، عادت عيناه ترصد الحركة أمام مركز الشرطة ، أخذ يحسب تعداد الجنود والخفراء ، أخذ يستعيد في ذاكرته كم منهم يمكن أن يلاقي حتفه ؟ كم زوجة سترمل ؟ كم أبناً يصبح يتيماً ؟ كم أم ستصبح ثكلى ؟ كم بيت يغلق ؟

عاد صوت المقرئ يهز جسده كله ، ضحكات الخفراء ورشفات الشاى تصفعه فوق وجهه ، يحاول أن يمنع الدموع التي تسربت من عينيه ، لا يستطيع ، تهبط من مقلتيه بلهيب يكوي وجنيتيه ، تعاوده الغشاوة ، أحاسيس متباينة ، تتجرد الحقيقة أمامه من ملابسها فيولي وجهه ، تدور حوله ، يغلق عينيه ، تفيض نفسه بالمشاعر ، لا تستبين الحقيقة أمامه جيداً ، يرهف الحس ، يترصد مصدر الصوت القادم من داخل المبنى ، يتأكد منه ، يخرج ضابط الشرطة ، يداعب أحد الخفراء ، يضحكون ، ضحكاتهم صفعات فوق وجهه ، مداعبته مع الخفير تقول أنه إنسان ، إنه بشر مثله ، أغلبهم مسلمين ، فجأة يعزم على أمر ، يهجم هجمة واحدة ، تعقد المفأجاة ألسنتهم ، لا يتحرك أحد ، يطلق رصاصاته في الفضاء ، يجلس على الأرض ، لا يصدقون ، يتسمرون ، تعقد لسانهم الدهشة ، ينظرون لبعضهم ، يتقدم لضابط الشرطة ،

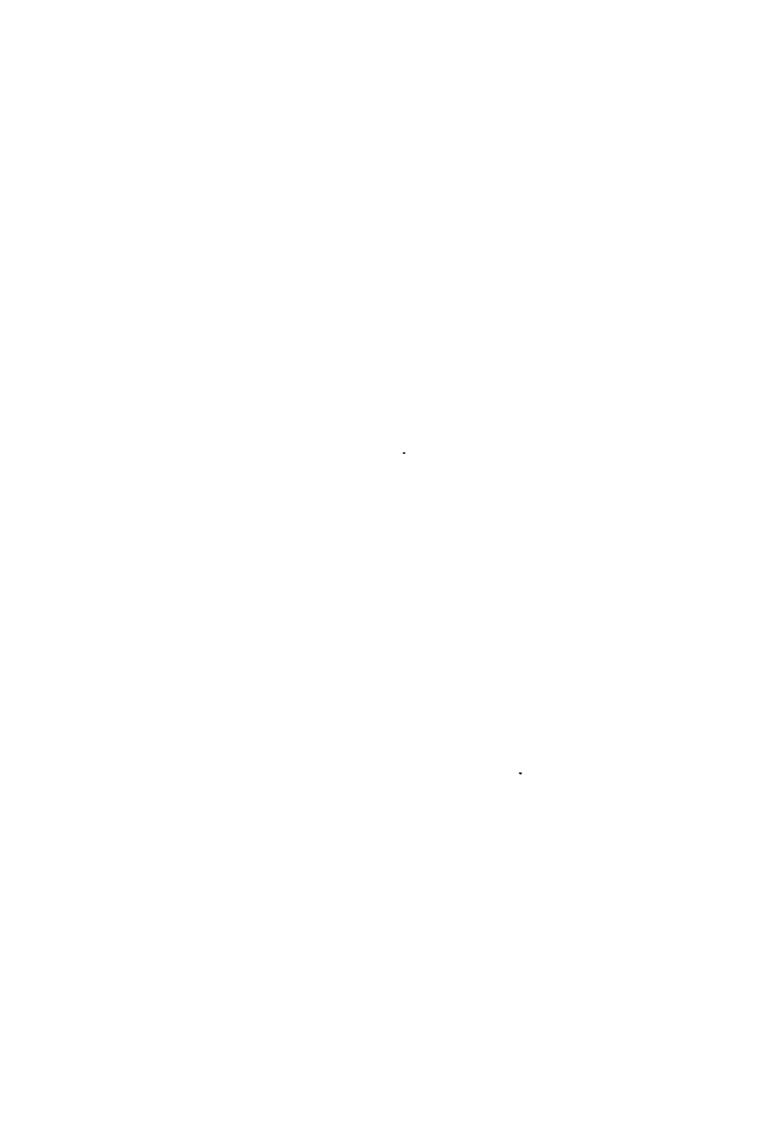
يطلب منه أن يقبض عليه ، أسئلة ضابط الشرطة إليه لا تحمل سوى إجابة واحدة : " قدمت لأقتلك ولكن طاشت رصاصاتي " !

الضابط لا يصدق ، الخفراء يعرفونه ، يعلمون أنه يستطيع أن يصيد العصفور من بُعد . أمام اصراره يودعه الحجز ، يحس بالهدوء يغمر جسده ، تذهب الرعشة ، يطلب منهم ماء ليتوضأ ويصلي .. يصلي لله شاكراً ..

في جوف الليل .. تصل الى أذنيه دعوات خير .. من يطلقها .. لايدري ..

الله أكبر ... الله أكبر ...

الفهرس



مطلوب أفضل جحش

■ طوال الليل .. ونهيق الحمير في البيوت لا ينقطع ! ضجيج لم تألفه البلدة من قبل، استردت الحمير عافيتها بعد طول هزال، عرفت ربما لأول مرة نشوة النهيق العفي، لم تعد تتمرغ في التراب مثلما كانت تفعل بل سحبها أصحابها قسراً إلى الترعة، غسلوها بالماء والصابون أبو ريحة، صنعوا لها أردية ملونة تقيها حرارة الشمس أو برودة الليل، تقبل الناس حمل أمتعتهم وأطفالهم بكل سرور ليريحوا حميرهم. إزداد دلال الحمير، أصبحت تمتنع عن أي طعام يقدّم إليها إلا اذا كان على ما تشتهي، رفضت أن يعتلي ظهرها رجلٌ بعد أن كان مرتعاً للأطفال والنساء، تمردت على استكانتها المألوفة فصارت تضرب بخلفيتيها في الهواء، وتثور، وتعض، صارت تعتدي على كل الحيوانات الأليفة الأخرى من الكلاب والماعز والجاموس، وعلى الطيور الوديعة أيضاً، وأصحابها يتحملونها بكل الرضا، فقد أصبح غدهم بكل آماله مرهوناً بالحمير، وبقدرتها .. !!!

KAMEL GRAPHIC



دار الأحمدي للنشر